

في
التنوير الإسلامي
« ١٤ »

المنهاج العقلي

في دراسات
العربية

تأليف
د. محمد عمارة

المنهاج العقلي

فى دراسات العربية

تأليف

د. محمد مارة



مكتبة مصر

للطباعة والنشر والتوزيع

أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٢٨



اسم السلسلة: في التنوير الإسلامي.

اسم الكتاب: المنهاج العقلي في دراسات العربية.

تأليف: دكتور / محمد عمارة.

تاريخ النشر: مارس ١٩٩٨.

رقم الإيداع: ١٩٩٧/ ٣٧٦٠.

الترقيم الدولي: 3- 0585 - 14 - 977 - I . S . B . N

الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

المركز الرئيسي: ٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر

ت: ٣٣.٢٨٧ - ٣٣.٢٨٩ / ١١.

فاكس: ٣٣.٢٩٦ / ١١.

مركز التوزيع: ١٨ ش كامل صدقي - الفجالة - القاهرة .

ت: ٥٩.٩٨٢٧ - ٥٩.٨٨٩٥ / ٢.

فاكس: ٥٩.٣٣٩٥ / ٢.

إدارة النشر: ٢١ ش أحمد عرابي - المهندسين - القاهرة

ت: ٢٤٦٦٤٣٤ - ٢٤٧٢٨٦٤ / ٢. فاكس: ٢٤٦٢٥٧٦ / ٢.

مقدمة

الأمر الذى لاشك فيه ، كما أعتقد ، أن دراساتنا اللغوية ، والنحوية منها بالذات ، قد أصبحت فى مسيس الحاجة إلى شىء غير قليل من التطوير ، خصوصاً فى هذه المرحلة التاريخية التى تشهد وعى الأمة العربية بجوهر تحررها الحقيقى من الاستعمار ، ومن ثم تشهد ذلك الاهتمام المتزايد بالطابع العربى ، والملاحم القومية ، والسمات العربية والهوية الإسلامية لهذه الشخصية التى تتقدم بها أمتنا اليوم إلى العالم فى مختلف المجالات . . . وهى أيضاً المرحلة التى يجمع فيها رواد هذه الأمة ، وأقاليمها ومراكز حضارتها على الاعتراف بالدور النامى والمتعاظم لمصر كقلب لهذا الوطن العربى الكبير . .

وإذا كانت هذه الحقيقة تضاعف من مسئولية الذين يتصدون للدراسات النحوية فى بلادنا ، فإن هناك حقيقة أخرى لا بد وأن تصاحبنا وتزامننا ونحن نتحدث عن أى تطوير أو إضافات يمكن أن نحدثها فى هذا المجال ، ألا وهى أن التجديد فى النحو ، وإعادة الصياغة ، والحذف أو الإضافة ، لا بد لكل ذلك أن يتركز على الأرض الصلبة ، أرض التراث الغنى المبدع الذى حفلت به العربية فى هذا المجال . .

وإن أية دعوة إلى التجديد ، أو محاولة فى هذا الميدان ، لا تنطلق من هذا المنطلق العزيز على أمتنا ، والنافع لها فى ذات

الوقت ، لن تكون أكثر من دعوة مشبوهة ، أو فقاعة محكوم عليها
بالزوال ، مثلها مثل الدعوات التي شاعت حيناً من الدهر
مستهدفة أن نكتب لغتنا بحروف لاتينية ، أو أن نجعل السيادة في
حقولنا الثقافي للهجات العامية ، والتي كان يحركها ، جهرة أو
خفية ، الاستعمار وأعوان الاستعمار ..

وإذا كنا نعتقد بضرورة دراسة التراث النحوي والانطلاق منه في
أية عمليات تطويرية لهذا الفرع من فروع دراساتنا اللغوية ، فإن
أحد أسباب هذا الاعتقاد هو أننا نؤمن بأن في هذا التراث أنصاراً
لهذا التطوير ، وأعلاماً أجلاء ، هم على طريق دراساتنا النحوية
منارات هادية وعلامات طريق تستحث خطانا لتتسلم منهم المشعل
ونكمل الشوط الذي قطعوا فيه العديد من الخطوات .. بل
لا تغالي إذا قلنا : أنهم يمدوننا بعناصر غير قليلة يمكن أن تساعدنا
في صياغة المنهج الأكثر دقة والأكثر أمناً فيما نريد أن نقدم عليه
من تحديد وتطوير .. بل ويقدمون لنا « سوابق تاريخية » تساعدنا
على الإجهاز على بعض الدعوات الرجعية الجامدة ، ولا نقول
إحافظه ، والتي ترفض أى تطوير لنحونا العربى بحجة أنه ليس في
الإمكان أبدع مما كان ..

وفي مقدمة هؤلاء الأعلام الذين نعتيهم ذلك الرائد العملاق
« أبو الفتح عثمان بن جنى » (٣٣٠ - ٣٩٢ هـ ، ٩٤١ - ١٠٠١ م) .

على أننا نود قبل أن ننهي سطور المقدمة هذه أن نعتزف بأن عنوان هذا البحث : (المنهاج العقلى فى دراسات العربية) - كما يبدو فى كتاب (الخصائص) لابن جنى - إن هذا العنوان إنما هو بالتأكيد أكبر من هذا البحث الذى نتقدم به الآن . . فليس هذا البحث بالذى يستطيع أن يوفى هذا الموضوع حقه من الدرس والاستقصاء ، ولا هو بالذى يستطيع أن يشفى غلة الباحث المتخصص فى هذا الموضوع ، وليس مرجع ذلك هو الاختصار الكمى ، وضغر حجم هذا البحث فقط ، بل وكذلك الاختصار فى كمية الجهد الذى بذل فيه . .

وليس هذا الاعتراف نوعاً من التواضع الذى تواضع الباحثون على سوقه فى مقدمات بحوثهم فى العادة أو فى غالب الأحيان ، وإنما هو نوع من الاعتراف بالحقيقة يدفعنى إليه التقدير الكبير لابن جنى وما فى كتابه (الخصائص) من جهد عظيم وإضافات جديدة فى ميدان الدراسات النحوية ، وأيضاً التقدير الموضوعى للمسئولية التى يتحملها الإنسان الجاد إذا ما أخذ على عاتقه أن يوفى مثل هذا الموضوع حقه من البحث والاستقصاء . .

غير أنى مع هذا أشعر بقيمة كبرى لهذه الصفحات التى أتقدم بها . . وذلك لأسباب عدة أهمها :

أولاً : أننى لا أدري إذا كان أحد قد تناول هذه الزاوية من زوايا دراسة ابن جنى لعلم النحو أم لا . . فإن كانت لغتنا قد حفلت

بدراسة أو دراسات في هذه النقطة المحدودة فإن لي شرف سلوكك
الدرب الذي أرجو لكثير من دارسي نحونا السير فيه ، وإلا فإن لي
شرف إثارة الموضوع ، مجرد الإثارة على أقل تقدير .

ثانياً : أنتى بهذه الصفحات أستجيب لرغبة نشأت ثم اعتملت
في نفسى طوال قراءتى عن المعتزلة خاصة ، وبشكل أعم عن
الذين استخدموا المنهج العقلى ، وأعلوا من شأن العقل فى تراثنا
العربى الإسلامى طوال تاريخنا الطويل . . إذ قرأت عرضاً : أن
أبا على الفارسى ، وتلميذه ابن جنى ، بل وابن جنى بالذات ،
كان من أبرز الذين طبعوا دراستهم للنحو بالطابع العقلى الذى
لا يخفى على متصفح لكتابه (الخصائص) فضلاً عن دارسه
الجاد ، وهذه الرغبة كانت تلح على أن أطرق هذا الموضوع .

ثالثاً : أنتى أرجو أن تكون هذه الصفحات عهداً على نفسى
لأوفى هذا الموضوع حقه فى يوم من الأيام . .

الكوفة والبصرة

مدينتان ومدرستان

أنا لا أريد أن أقول أن ابن جنى كان وحيد عصره ، وفريد زمانه ، والبحر الذى تفرد بعلم مالم يحط به عالم من سبقوه أو نسجوا على منواله ، على عادة ما كانت تصنع كتب التراجم التى حفل بها تراثنا ، ومقدمات التقريظ التى كنا نطالعها وصفاً للكتب والكتاب قبل أن يحل النقد الحديث محل هذا التقريظ ..

وذلك لأنى أعتقد أن الإنسان ، أى إنسان ، والعالم ، أى عالم ، إنما هو ابن عصره ومجتمعه وبيئته وحضارته ، وأن عبقريته ونبوغه إنما تقاس باكتشافه للجديد الذى يضيفه إلى تراث أمته وحضارتها ، واستخدامه الأسلحة والأدوات الفكرية التى أبدعتها هذه الأمة فى حل المعضلات التى تواجه الفكر الإنسانى ، ومن ثم إغناء وإثراء هذا الفكر بالمتكر والجديد ..

ومن هنا كان ابن جنى ، كما أعتقد ، ثمرة للعقل العربى الإسلامى الذى ساد مجتمع البصرة فى القرن الرابع الهجرى ، وإضافة خلاقة لهذا العقل .. كان ثمرة طبيعية ، ليس فيها شذوذة ، بل ولا إعجاز ، لأنه كان من نوع الثمار التى هيئت هذه المدينة ، ذات البيئة الفكرية العقلية ، لكى تثمرها وتنضجها وتقدمها إلى الناس ..

ونحن نعلم أن الخلاف بين الكوفة والبصرة ، لم يكن عصبية مكانية ، وإن تكن هذه العصبية قد لعبت دوراً في الموضوع .. ولا كان اختلافاً في نسب القبائل التي قطنت كلا منهما ، وإن كان بعض الباحثين يعطى هذا العامل كبير وزن في هذا الخلاف .. وذلك لأن هاتين المدينتين اللتين أصبحتا مدرستين فكريتين لم تكن علومهما ولا اختلافاتهما مقصورة على حدودهما ، بل إن الدارس في التراث العربي بفروعه العديدة ، يستطيع أن يلمس الملامح المميزة لكل مدرسة منهما في الفكر العربي الإسلامي لا في العراق فحسب ، بل وفي الشام ، ومصر ، والمغرب ، بل والأندلس أيضاً .. ومن ثم فلا بد لنا من أسباب جدية تصلح أن تكون تبريراً وقاعدة تتركز عليها هذه الاختلافات ، وهذا التباين والتمايز في الملامح الفكرية ، ومن ثم تبريراً لهذا الشمول والعموم ..

ونحن مع الذين يرون أن البصرة قد ورثت تراثاً عقلياً منذ ما قبل الإسلام كان معيناً لها على أن تطبع فكرها ومدرستها بهذا الطابع العقلي الذي أورثتنا إياه .. وأنها كبيئة بحرية وتجارية كان لها من ذلك ما أعان على نضج واكتمال فكرها في هذا الاتجاه .. وأنها كانت في ذلك - على وجه الإجمال - على عكس الكوفة التي امتازت بالعلوم والمناهج التي لا تعطى الصدارة للعقل في دروب البحث والتحصيل . ولقد انسحب هذا التمايز بين المدرستين ، وكان لا بد أن ينسحب ، على الدراسات النحوية « فالنحو البصري هو في حقيقته مظهر من مظاهر الطابع العقلي الغالب على البصرة »^(١) .

(١) طه الحاجري (الجاحظ ، حياته وأثاره) ص ٣٧ . طبعة دار المعارف بمصر سنة

وإذا كان بحثنا هذا سيقدم ابن جنى دليلاً على هذه الدعوى ،
فإننا نجد في عالم نحوى آخر مثل « الكسائى » (١١٩ - ١٨٩ هـ -
٧٣٧ - ٨٠٤ م) وفي منهجه في الدراسات النحوية النموذج
الصادق والمعبر الأمين عن ذلك الطابع الذى طبعت به الكوفة
« نحوها » ، وهو الطابع الذى لم يكن ثمرة لإحلال العقل فى هذا
المضمار المكان الذى أحله إياه البصريون .

فالكسائى يهتم باللفظ أكثر مما يهتم بالمعنى ، ويتعبرنا
الحديث : يهتم بالشكل أكثر من اهتمامه بالمضمون ، ونحن نعلم
أن الارتباط بين العقل والمعنى ، بين العقل والمضمون ، إنما هو أوثق
وأكثر من الارتباط بين العقل والألفاظ . .

ولكن الكسائى يستخدم القياس فى الدراسات النحوية ،
ولا يركن فقط إلى السماع ، فهو يختلف عن رواة الحديث
وعلمائه ، وعن أهل الظاهر من الفقهاء ومفسرى القرآن ، بل إننا
نراه يعبر عن مذهبه ومنهجه فى النحو فيقول :

إنما النحو قياس يتبع وبه فى كل أمر ينتفع

فكيف نضعه فى هذا الإطار؟؟ . .

ورغم أننا لا نود الاستطراد والتفصيل فى هذا الأمر ، إلا أننا نورد
هنا استشهادين يستقيم بهما ما قلناه فى هذا الموضوع .

فابن درستويه (٢٥٨ - ٣٤٧ هـ ، ٨٧١ ، ٩٥٨ م) يقول : « سمع
الكسائى الشاذ الذى لا يجوز إلا فى الضرورة ، فجعله أصلاً يقيس
عليه ، فأفسد النحو بذلك : » (١) .

(١) (دائرة معارف الشعب) م ٢ ص ٣٨١ طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩ م .

ونحن لا نريد أن نوافق ابن درستوية على أن الكسائي قد أفسد النحو ، وإنما الذي نريده هو أن نلقت النظر إلى كلمتي « سمع » و « أصلاً » في هذا النص . . . فالسماع عند الكسائي كان هو الأهم ، والمسموع والمروى كان هو « الأصل » الذي عليه هذا النوع من أنواع القياس الذي جعل منه الكسائي - والكوفيون عموماً - قاعدة دراساتهم للعلوم ومنها الدراسات النحوية . . .

بل إننا نلمح ذلك أيضاً في هذه القصة التي يرويها « الدوري » عندما يقول : « كان أبو يوسف يقع في الكسائي . ويقول : أي شيء يحسن ؟؟ . . . إنا يحسن شيئاً من كلام العرب . فبلغ ذلك الكسائي ، فالتقيا عند الرشيد - وكان الرشيد (١٧٠ - ١٩٢ هـ - ٧٨٦ - ٨٠٩ م) يعظم الكسائي لتأديبه إياه - فقال لأبي يوسف : ما تقول في رجل قال لامرأته : أنت طالق طالق طالق ؟؟ قال : واحدة . قال : فإن قال لها : طالق أو طالق أو طالق ؟؟ قال : واحدة . قال : فإن قال لها : طالق ثم طالق ثم طالق ؟؟ قال : واحدة . قال : فإن قال لها : طالق وطالق وطالق ؟؟ قال : واحدة . فقال الكسائي يا أمير المؤمنين ، أخطأ في اثنتين ، وأصاب في اثنتين . أما قوله : أنت طالق طالق طالق ، فواحدة . . . لأن الاثنين الباقيتين تأكيد ، كما تقول : أنت قائم قائم قائم . وأما قوله : أنت طالق أو طالق أو طالق . فهذا شك ، فوقع الأولى التي تثيقن . . . وأما الوجهان الباقيان فثلاث ، لأنه تسق ! » (١) .

(١) المصدر السابق م ٢ ص ٣٨٣

ونحن نريد أن نلفت النظر إلى أمرين في هذه القصة يدعمان ما ذهبنا إليه في هذا الأمر الذي نحن بسبيله :

الأول : أن أبا يوسف (١١٣ - ١٨٢ هـ ، ٧٣١ - ٧٩٨ م) من أصحاب النظر العقلي في ميدان الدراسات الفقهية ، تحدث عن العلم الذي يحسنه الكسائي واصفاً إياه بأنه « شيئاً من كلام العرب » وكأنه يريد أن يعتبر المنهج العقلي الذي يمتاز به هو على الكسائي الفارق الجوهري ، والعظيم بين علمهما . . . وهو بهذا يشير إلى إغراق الكسائي في ميدان السماع والقياس على هذا المسموع مهما كان حفظه من المنطق والعقل والشيوع .

الثاني : هو أن الطريق الذي اتبعه الكسائي « لامتحان » أبي يوسف ، إنما تبدو فيه بجلاء ملامح المنهج الذي يهتم باللفظ والشكل أكثر من اهتمامه بقضية المعنى والمضمون . . . ونحن عندما نعرض هذه الصيغ التي سأل بها الكسائي أبا يوسف ، عندما نعرضها على عقلنا اليوم ، فلن نحيب فقط إجابة أبي يوسف ، ونقول كما قال : « واحدة » ، بل سنسأل : هل يريد هذا الرجل الذي يحلف هذه الأيمان أن يطلق زوجته ؟؟ . . . وتأسيساً على نيته وعزمه الصادر عن روية واقتناع واعمال عقل وفكر سيكون الجواب : أما الكسائي فإنه لم ير من الفروق بين هذه الصيغ سوى الفروق الشكلية واللفظية ، لأنه كان لا يحفل بغير هذه الفروق . .

وهو لم يكن بدعاً في ذلك ، فلقد كانت مدرسة الكوفة على هذا الحال ، فهي « لم تطلق هذا النمط من التنظيم واستنباط القوانين . والنظرة الشاملة التي هي أقرب إلى تجريد الغلاشعة إذ كان يعوزها هذا الطابع ^(١) » .



ولم يكن ابن جنى مجرد ثمرة ناضجة لهذه البيئة العقلية التي امتازت بها البصرة ، بل لقد كان ، بالإضافة إلى ذلك ، أحد تلامذة مدرسة بصرية امتازت باعتمادها على العقل ، وثقتها في قدراته إلى أبعد الحدود . . ألا وهي مدرسة الاعتزال . . والمعتزلة هم جماعة من المتكلمين أقاموا مذهبهم على النظر العقلي ، فهم يتولون تعاليم الدين تأويلاً يتفق والعقل ، على خلاف أهل السنة الذين كانوا يأخذون بظاهر القرآن والحديث ^(٢) .

وكان أولى بهذا المنطق العقلي الذي جعله المعتزلة فيصل التفرقة في أهم قضايا العقيدة ، وفي مقدمتها قضية التوحيد ، وما يرتبط بها من قضايا صفات الله عز وجل - والعادل وما يرتبط بها من حديث عن أفعال العباد . . كان أولى بهذا المنطق العقلي أن يعرف طريقه إلى ميدان الدراسات النحوية وهو ما قام به عالمنا الجليل ابن جنى . .

(١) د . طه الحاجري (الملاحظ ، حياته وآثاره) ص ٣٧

(٢) الموسوعة الفلسفية مختصرة (ص ٣٢٨ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣ .

ولم تكن هذه المدرسة الفكرية الهامة مجرد صدى عربي لفكر اليونان والإغريق ، كما يزعم ذلك بالنسبة للحضارة العربية عموماً عدد من مفكرينا العرب الذين تبعوا في ذلك بعض المستشرقين الذين يرى أحدهم « أن كل أفكار المعتزلة أثر من آثار الفلسفة الإغريقية في تطبيقها على التوحيد الإسلامي ^(١) » وإنما كانت مدرسة عربية أصيلة استفادت من الثقافات والحضارات والتراث غير العربي ، الذي غرّب وشرح وكسسته البيئة العربية بطابعها وملامحها . . ونحن نجد في الجاحظ (١٥٠ - ٢٥٥ هـ ، ٧٦٧ - ٨٦٨ م) وهو أحد أعلام المعتزلة ، وأحد الذين تأثر بهم ابن جني مصداقاً لهذه الأصالة التي امتازت بها هذه المدرسة ، فهو رغم إعجابه بأرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق م) الذي يسميه « صاحب المنطق » إلا أنه كثيراً ما ينتقده ويخالفه في الرأي كأن يقول مثلاً : « زعم صاحب المنطق . . . (ثم يحكى أشياء حدث بها أرسطو ، ثم يعقب) : وهذا كلام غير صحيح لم يأت في أخبار الأوائن ولا الأواخر ^(٢) » وكثيراً ما تكون أمثال انتقادات الجاحظ هذه لأرسطو ثمرة لملاحظة الجاحظ وتجربته ، وهي من أتمن ما أضافه العقل العربي الإسلامي إلى فكر اليونان والإغريق .

ونحن إنما نحرص على تأكيد هذه الحقيقة ، لأننا نعرف أن منطق أرسطو الذي ساد في الدراسات النحوية ، في عصر ازدهار

(١) ديلاسي أنبيري (الفكر العربي ومكانه في التاريخ) ص ١٤٥ . طبعة القاهرة سنة ١٩٦١ م

(٢) (دائرة معارف الشعب) م ٥ ص ٢٩٩ .

هذه الدراسات ، لم يكن دائماً وباطراد هو المنهج الذى استخدمه ابن جنى فى دراساته النحوية ، لا لأن الخروج على هذا المنطق الصورى كان طابع المعتزلة ، ولا لأن هذه المدرسة العقلية العربية الإسلامية قد طورت هذه الأداة من أدوات التفكير الإنسانى ، وإنما لأن ابن جنى هذا كان صاحب شخصية مستقلة حتى عن كثير من المعتزلة ، كما كان نطاً متميزاً عن أغلب النحاة البصريين . . . ومن هنا فإن الإشارة إلى الأصالة العربية للمنهج العقلى عند المعتزلة إنما تمثل بالنسبة لنا سلماً نرقى به إلى رؤية الأصالة العربية فى منهج ابن جنى ، كما سنلمس ذلك بعد حين . .



وإذا كان الطابع العقلى للبصرة قد مثل الإطار الذى اكتنف حياة ابن جنى وثقافته ، وإذا كانت المدرسة الاعتزالية بترائها الفكرى الكبير قد كانت بالنسبة له أمّاً ومهداً ومركز جذب وإشعاع ، فإن هذين العاملين لم يكونا وحدهما أصحاب الفضل فى هذا النضج العقلى الذى تمثل فى علمنا الكبير . . فابن جنى قد عاش أخصب السنوات التى شهدت فيها البصرة قيام تلك الجماعة الفلسفية الخطيرة الشأن التى عرفت باسم (إخوان الصفاء وحلان الوفاء) والشئ تأسست فى البصرة حوالى ٣٦٠ هـ (٩٧٠ م) أى وابن جنى فى الثلاثين من عمره .

ونحن نعلم أن هذه الجماعة الفلسفية العقلية التي أثرت تأثيراً كبيراً في الفكر العربي الإسلامي إنما كانت إحدى التنظيمات الشيعية الإسماعيلية ، وأن رسائلها الشهيرة إنما كانت أعمالاً فكرية أبدعها الدعاة الشيعيون في مواطن كثيرة ومدن عدة من أهمها مدينة « سلمية » من أعمال حماة في سوريا ^(١) ، وأنهم كانوا « يريدون قلب النظام السياسي المسيطر على العالم الإسلامي يومئذ ، وهم يتوسلون إلى ذلك بقلب النظام السياسي المسيطر على حياة المسلمين أيضاً ، وهم يسلكون في ذلك مسلك جماعات سبقتهم في العالم القديم أظهرها جماعة الفيثاغوريين في المستعمرات اليونانية الإيطالية . . . وقد كان حفظها من التوفيق كحظ الفيثاغوريين ، فقد وفق الإسماعيليون إلى وجود سياسي مكن لهم في بعض الأرض . . . » ^(٢) .

فكيف كانت هذه المدرسة الشيعية الإسماعيلية أحد المصادر الهامة التي أثرت في تفكير ومنهج ابن جني ، على ما بين الشيعة والمعتزلة من خلافات ؟؟ .

الحقيقة أننا نرى في الطابع العقلي عند المدرستين وجه الشبه الذي ربط بينهما ، والطريق الذي حمل تأثيراتهما العقلية والفلسفية إلى دراسة النحو عند ابن جني كما سندلل عليه بعد حين . . .

(١) عنارف تامر (القرامطة) ص ٣٣ ، ٤١ طبعة بيروت ؛

(٢) ص ٢٢ حين (دائرة معارف الشعب) ص ٥٠٤ ص ٥ ، ٦ .

ولم يكن ابن جنى هو المعتزلى الوحيد الذى وضحت صلته الفكرية بجمعية إخوان الصفاء ، فلقد « كان أبو حيان التوحيدي (المتوفى سنة (٤١٤ هـ ١٠٢٣ م) المعتزلى تلميذاً لهم . إن لم يكن عضواً عاملاً فى جمعيتهم » ^(١) وإن كان قد حاول أن يبعد عن نفسه تلك الشبهات التى كثيراً ما اتجهت إليه فى هذا المقام .

وحتى تتضح لنا تلك الصلة بين إخوان الصفاء وبين ذلك النحو الذى نجاه ابن جنى فى كتاب (الخصائص) . نشير إلى ذلك الحديث الذى وجهه الوزير صمصام الدولة : « حدثني عن شيء هو أهم من هذا إلى ، وأخطر على بالي : إنني لا أزال أسمع من «زيد بن رفاع» ^(٢) قولاً يرييني . ومذهباً لا عهد لي به . وكناية عما لا أحقه ، وإشارة إلى ما لا يتوضح شيء منه . يذكر الحروف ويذكر اللفظ ، ويزعم أن الباء لم تنقط من تحت واحدة إلا لسبب ، والتاء لم تنقط من فوق اثنتين إلا لعلة ، والألف لم تهمل إلا لغرض ، وأشباه هذا . وأشهد منه فى عرض هذا دعوى يتعاضم بها ، وينتفخ بذكرها . . . فما حديثه ؟ وما شأنه ؟ وما دخلته ؟! » ^(٣) .

(١) دار فليب حتى وآخرين (تاريخ العرب) ص ٢ . ص ٤٥٦ . طبعة بيروت سنة

١٩٥٣ م

(٢) وهو من أعلام إخوان الصفاء .

(٣) (دائرة معارف الشعب) م ٥ . ص ٤

فإذا علمنا أن : ابن جنى قد توفى ٣٩٢ هـ (سنة ١٠٠١ م)
وأن أبا حيان التوحيدى قد توفى ٤١٤ هـ (سنة ١٠٢٣) ، علمنا
أن ابن جنى قد عاصر ، إن لم يكن عاشر ، « زيد بن رفاعه »
هذا ، وأنه قد تأثر بهذا الطابع الذى استحدثه إخوان الصفاء فى
الدراسات النحوية ، بل إن كتابه « الخصائص » ليؤكد متانة
الصلة بينه وبين إخوان الصفاء ، ويقطع بصحة وجهة نظرنا عندما
نقول : إن هذه الجماعة كانت العامل الثالث الذى أثر فى ابن
جنى ، وإنه إنما كان نبئاً طبيعياً وثمره ناضجة للبصرة ، والمعتزلة ،
وهذه الجماعة الفلسفية السياسية التى أثرت فيه وفى عصرها أبلغ
التأثير .

من هو ابن جنى؟؟

وما كان فضل عالم فذ كإبن جنى ليخفى على معاصريه ، ولا ليحجب عن العلماء والأدباء العرب الذين كتبوا التراجم وأرخوا لنشأة العلوم وتطورها .

فتحن نقرأ فى (معجم الأدباء) لياقوت الحموى أن المتنبى (٣٠٣ - ٣٥٤ هـ ، ٩١٥ - ٩٦٥ م) . كان يعجب بذكاء ابن جنى وحذفه ويقول : « هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس » ! فإذا علمنا أن المتنبى كان مقلاً إلى حد كبير فى الثناء على النحاة ، وأنه كان يكره فى أكثرهم الجمود والإحجام عن الاحتجاج بشعره ، وأن ثقته فى « ذكائهم » و « حذقهم » لم تكن كبيرة ، إذا علمنا ذلك ، كانت لشهادته هذه لابن جنى قيمة أكبر مما تعطيه للوهلة الأولى ، يضاف إلى ذلك أن المتنبى لم يكن مجرد شاعر فحل ، ولا أمير للشعر فى عصره ، وإنما كان صاحب نظر وفكر ، وله فى الفلسفة والحكمة مقام غير قليل . .

وإلى جانب تحديد ياقوت لتاريخ ميلاد ابن جنى بسنة ثلاثين وثلثمائة للهجرة (٩٤١ م) ولوفاته بسنة اثنتين وتسعين وثلثمائة هجرية (١٠٠١ م) فى خلافة القادر العباسى ، نجده واصفاً إياه بأنه « كان من أحذق أهل الأدب ، وأعلمهم بالنحو والتصريف ، صنف فى ذلك كتباً برز فيها على المتقدمين ، وأعجز عن مثلها المتأخرين » (١) .

(١) كتاب الخصائص - التصدير - طبعة القاهرة سنة ١٩١٣ م

وعلى الرغم من أن ابن جنى قد ولد وعاش في عصر كانت سطوة المدرسة الاعتزالية فيه قد زالت ، وأصبحت السيطرة الفكرية فيه لأهل الحديث . وألف كتبه في ظل الفترة الزمنية التي قال عنها المؤرخون للفكر العربي الإسلامي : إنها هي التي أُدِيل فيها لأهل السنة من المعتزلة ، الذين احتضنت الدولة مذهبهم في عهود المأمون والواثق والمعتصم ، على الرغم من ذلك إلا أنه يقدم لنا بين يدي كتابه - (الخصائص) - إعلاناً عن التزامه الفكرى بمذهب الاعتزال ، فيقول في بداية المقدمة : «أحمد لله الواحد العدل القديم . . .»^(١) . ولعل هذه الشجاعة الأدبية التي امتاز بها ابن جنى ، إلى جانب غزارة علمه وتمكنه من فن الجدل ، واستيعابه الجدير بالإعجاب لعلوم عصره ، لعل ذلك كان من أبرز الصفات التي جعلت من كتابه (الخصائص) تجسيداً للطابع العقلى الذى امتاز به فكر هذا العالم الجليل ، ولعل فى شهادة المتنبى بنبوغ ابن جنى ما يلفت نظرنا إلى أن هذا النبوغ إنما كان مبكراً ، وخاصة عرفتها حياة عالمنا الجليل من صغره . لأن المتنبى قد مات وابن جنى فى الرابعة والعشرين من عمره . وفى ذلك دليل على أن عمر نبوغه إنما كان عمر سنين حياته ، وأن فى ذلك أحد مصادر الغنى الفكرى الذى أثمرته هذه الحياة .

(٢) المصدر السابق ص ٢ . . وفى هذه العبارة التى قد لاحظت نظر البعض - إشياء إلى أهم أصول المعتزلة فى « التوحيد » و « العدل » ، وهم الذين كانوا يسمون أهل العدل والتوحيد)

منهج البحث في (الخصائص)

وابن جنى لا يدعنا نستشف منهجه الفريد في البحث والدراسة من خلال تناوله للقضايا العديدة التي احتواها كتابه الكبير . وهو لو اقتصر على ذلك لما كانت هناك صعوبة في إدراك هذا المنهج من خلال طريقة التناول التي تطالعنا في كل صفحة وفي كل باب . وإنما نحن نجده يحدد لنا في وضوح واستقامة منهجه وسبيله ، ويتحدث عن مهمة كتابه هذا فيقول : « إن هذا الكتاب ليس مبنياً على حديث وجوه الإعراب ، وإنما هو مقام القول على أوائل أصول هذا الكلام ، وكيف بدئ وإلى من نحى ، وهو كتاب يتساهل ذوو النظر من المتكلمين ، والفقهاء ، والمتفلسفين ، والنحاة ، والكتاب ، والمتأدبين ، التأمل له ، والبحث عن مستودعه ، فقد وجب أن يخاطب كل إنسان منهم بما يعتاده ، ويأمن به ، ليكون له سهم منه ، وحصة فيه ^(١) » فهو ليس كتاب « نحو » يكتب للنحاة ولطالبي النحو ، بقدر ما هو كتاب يوضع لفلسفة النحو ولبحث عن « أوائل أصول هذا الكلام » ثم هو يوضع للمثقفين والعلماء العرب جميعاً . ومن ثم فلا بد وأن تكون الوشائج بينه وبين سائر ألوان الفكر العربي شديدة الاتصال .

وكتاب له هذه الخاصية الهامة والحيوية ، لابد وأن تكون المكتبة العربية في أمس الحاجة لوجوده ، ولابد وأن يكون غيابه عنها

(١) المصدر السابق ص ٦٨

دليل قصور تلحق تبعته بالذين تقدموا ابن جنى فى دراسة هذا الموضوع ، ومن ثم نجد يتحدث بفخر واعتزاز عن كتابه هذا واصفاً إياه بـ « أنه من أشرف ما صنف فى علم العرب ، وأذهب فى طريق القياس والنظر . . . وأجمعه للأدلة على ما أودعته هذه اللغة الشريفة من خصائص الحكمة ، ونيطت به من علائق الإنقان والصنعة ، فكانت مسافر وجوه ، ومحاسن أذعته وسوقه . تصف لى ما اشتملت عليه مشاعره ، ونجىء إلى بما خيطة عليه أقرابه وشواكله ، وترينى أن تعريده^(١) كل من الفريقين : البصريين والكوفيين عنه ، وتحامسهم طريق الإمام به . . . إنما كان لامتناع جانبه . . . وذلك أنه لم تر أحداً من علماء البلدين تعرض لعمل أصول علم النحو ، على مذهب أصول الكلام والفقه »^(٢) .

وهكذا نجد أن ابن جنى يحدد لنا منذ البداية منهج بحثه ، ومن ثم المهمة التى ابتغاهها من وراء تأليف هذا الكتاب ، كما نجد وقد بدأ لنا منذ البداية عملاقاً يدعوه المنهج العلمى والثقة بالنفس إلى الارتفاع فوق العصبية للبصرة ضد الكوفة ، فيقدم على توجيه النقد إلى المدرستين لهروبهما من اقتحام الميدان الذى اقتحمه هو ، والذى قدم لنا (الخصائص) كديوان لرحلته الرائدة يحوى بين دفتيه هذا الجهد العلمى النبيل .

وحتى نستطيع أن ندرك صدق ابن جنى فى حديثه هذا لابد لنا من نظرات فى صفحات كتابه هذا وأبوابه ، ولابد من وقفات : ولو قصيرة عند بعض الملامح والمميزات التى تؤكد قيام هذا الكتاب فى المكان والإطار الذى أبصرنا وجوده فيه . .

(٢) الخصائص ، ص ٢ ، ٣ .

(١) تعريده : هرب وقرار .

الخلق والإبداع

لعلنا لا نكون منصفين لابن جنى ، ولا موفين حقه وقدره من التقويم الموضوعى ، بل ولا دقيقين فى تعبيرنا إذا نحن اعتبرنا الجهد الذى أودعه كتاب (الخصائص) مما يمكن أن يندرج تحت عنوان « التطوير » و « التجديد » . . . ذلك لأن الذى صنعه ابن جنى كان أكثر من ذلك ، وغير ذلك تمامًا فلقد كان عمله هذا خلقًا جديدًا ، وإبداعًا لم يسبق إليه فى العربية بشكل متكامل ، وعلمًا جديدًا يتقدم به إلى الناس مستوفيًا لخصائص العلم الجديد وشرائطه .

ومن ثم فكان لابد لابن جنى أن يواجهه مهمة أصعب من تلك التى يواجهها المحددون فى العلوم ، وكان لابد له من أن يناقش الاتجاه المحافظ ، الذى يعادى ، أو لا يرحب بالخلق والإبداع .

ونحن نجد يحكى لنا صورة من ذلك الجدل ، واللجاج ، وبعضاً من تلك الخجج ، التى كانت ترمى فى طريق الذين يطرقون الأبواب التى لم تطرق من قبل ، أو يفتحون التوافذ التى ظن الأقدمون أنها لن تفتح فى يوم من الأيام ، فيقول : « . . . إن ينبغ فى الأصحاب نابغ فينشئ خلافاً ما ، على أهل مذهبه ، فإذا سمع خصمه به ، وأجلب عليه ، قال : هذا لا يقول به أحد من الفريقين ^(١) ، فيخرجه مخرج التقيص له ، والتشنيع عليه . . . ولعمري إن هذا ليس بموضع قطع على الخصم . . . لأن للإنسان أن يرغب من المذاهب ما يدعو إليه القياس ، ما لم يلو بنص ، أو ينتهك حرمة شرع ^(٢) » .

(١) بريد الكوفيين والبصريين

(٢) الخصائص ، ص ١٩٥ . ١٩٦ .

ونحن نتعلم هنا من ابن جنى كيف تكون الثورة العلمية جادة ومفيدة ، وكيف يكون الابتكار والخلق و « الأرتجال » . بل ومخالفة الإجماع محكومًا بإطار العقل والقياس ، وكيف يمكن للباحث أن يتولى النص دون أن « يلوى » هذا النص ، أى دون أن « يلوى عنق الحقيقة » كما نقول نحن فى التعبير الحديث . . وأيضاً دون انتهاك حرمة الشرع والناموس . . أى قانون السحت وقواعد العلم . .

وابن جنى يزيد هذه القضية الخصبة ، التى لا زلنا نعيشها اليوم ، والتى ستعيشها أجيال إنسانية قادمة . يزيداها وضوحاً وجلاءً فيقول : « إن إجماع أهل البلدين إنما يكون حجة إذا أعطاك خصمك يده ألا يخالف المنصوص والمقيس على المنصوص ، فأما إذا لم يعط يده بذلك فلا يكون إجماعهم حجة عليه . وذلك أنه لم يرد من يطاع أمره فى قرآن ولا سنة أنهم لا يجتمعون على الخطأ . . إلا أننا مع هذا الذى رأيناه ، وسوغنا مرتكبه ، لانسمح له بالإقدام على مخالفة الجماعة . . إلا بعد أن يناهضه ^(١) إتناً ، ويثابته عرفاناً ولا يخلد إلى سائح خاطره ، ولا إلى نزوة من نزوات تفكره . . وقد قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : ما على الناس شئ أضمر من قولهم : ما ترك الأول لآخر شيئاً ! ^(٢) . ولعل فى هذه العبارات الهادية التى يصور بها ابن جنى الطريق إلى الخلق والابتكار ما يعيننا على أن نتصور ذلك الشيخ الجليل ، وتخيّل مكانته فى تراثنا العربى كعلامة بارزة من علامات ومعالم الطريق . . .

(٣) الكفائى ، ص ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ .

(١) أى يناهض رأى الجماعة .

وهي عبارات واضحة وقاطعة في الاحتجاج ، وإن كنا نود الإشارة إلى تعبيره الذي يقول فيه : « والمقيس على المنصوص » لأننا نلمح فيه مذهب ابن جنى الذي يفرق بين القياس على النص ، وبين القياس كمعيار عقلي ، والأول قد استعملته الكوفة فلا فضل فيه للبصرة عليها ، أما الثاني فلقد كان أوضح ما يكون في البصرة ، وأكثر وضوحاً لدى المعتزلة ، وهو الذي أدخله ابن جنى ميدان الدراسات التحوية فكان أداة التجديد والخلق والإبداع الذي سبق إليه الكثيرون .

الاستقلال فى الرأى

ولقد كان طبيعياً ومنطقياً مع هذا المذهب الذى ذهب إليه ابن جنى ، فى الخلق والإبداع ، أن يكون صاحب شخصية مستقلة ، وطابع متميز ، وألا يدخ لمدرسة عليه سلطاناً إلا بقدر حظ حججها من موافقة القياس العقلى ، وألا يسمح لمذهب أو جماعة بأن «تحتويه» فكرياً ، فيلتزم بأرائها دون اقتناع ، أو يدافع عن بعض مالا يراه مقنعاً من حججها حتى وإن كان يرى فى حجج أخرى لها ما يقنع ، وما هو جدير بالتبنى والالتزام ..

ولقد رأينا كيف انتقد الكوفيين والبصريين على السواء حين أشار إلى هروبهم وفرارهم من دراسة هذا العلم الذى افتتح هو ميدان الدرس فيه ... كما رأينا يقف موقف المتحرر من الالتزام برأى الجماعة ولا يرى عصمتها من الاجتماع على الخطأ ... كما نجد - وهو المعتزلى الذى يتحدث عن الجاحظ ، وهو أحد أعلام المعتزلة فى عصرهم المتوسط^(١) بكثير من الاحترام والتقدير - نراه لا يجامله ولا يهادنه إذا ما خالفه فى رأى ارتأه ... فهو ، مثلاً ، يقول : «يحكى عن الجاحظ ... أنه قال : قال النحويون : إن أفعل الذى مؤنثه فعلى لا يجتمع فيه الألف واللام ومن ، وإنما هو بمن أو بالألف واللام : نحو قولك : الأفضل ، وأفضل منك ، والأحسن ، وأحسن من جعفر ، ثم قال : وقد قال الأعشى :
فلست بالأكثر منهم حصا وإنما العزة للكائر

(١) الشكر العربى ومكانه فى التاريخ : لـديلاسى أولبرى : ترجمة د. فنام حسن ص ١٤٢

ورحم الله أبا عثمان ، أما أنه لو علم أن (من) في هذا البيت ليست التي تصحب أفعل للمبالغة نحو أحسن منك وأكرم منك ، لضرب عن هذا القول إلى غيره مما يعلو فيه قوله ، ويعنو لسداده وصحته خصمه ، وذلك أن (من) في بيت الأعشى إنما هي كالتي في : أنت من الناس حر ، وهذا الفرس من الخيل كريم ، فكأنه قال : لست من بينهم بالكثير الحضا ، ولست فيهم بالأكثر الحضا » (١) .

وهذه الإشارة التي استشهدنا لها بهذا الشاهد من كلام ابن جني ليست ضعيفة الغناء ، ولا قليلة الفائدة ، ولا قاصرة في مغزاها حيال التدليل على استقلال شخصيته ، وخاصة إذا علمنا أن ابن جني ، كما قدمنا ، كان معتزلياً في عصر دالت فيه دولة المعتزلة ، فكان من الطبيعي أن « ينكمش » أعلامهم وقادتهم ومفكروهم بعضهم نحو بعض ، وأن يسود وسطهم شعور الأقلية المضطهدة ، وهذا الشعور تعيشه وتنفسه كل الأقليات فكرية كانت أو عرقية أو دينية ، وهو يجعلها تحجب عن الغير أخطاء المخطئين من أفرادها ، وتحول بين الضوء وبين أن يسقط على ما في بنائهم الفكري من ثغرات ، ولكن هذا الشعور وذلك الإحساس ، ما كان ليمنع ابن جني ، من تناول الجاحظ بالنقد وآرائه بالتفنيد ، لأن شيئاً آخر كان يتحلى به ابن جني ، أكبر من شعور الأقلية الفكرية بالتضامن والدفاع عن الإخوة « مظلومين أو ظالمين » ، هذا الشيء هو الشجاعة الفكرية النابعة من شخصية مستقلة لا تلتزم إلا بما تؤمن به صحيح الإيمان .

مستوى البراهين النحوية

و مكان النحو من تصنيف العلوم

وها نحن نجد ابن جنى ينقل طرفاً من المعركة المستخدمة بين المعتزلة والفقهاء من أهل السنة ، إلى كتابه (الخصائص) ، ولكن في إطار دراساته النحوية ، فهذه اللغة التي لا تعنى بالنسبة لأهل السنة ، والفقهاء منهم خاصة ، أكثر من « خادم مقدس » للقرآن الكريم أو المأثور من الحديث . ينتزعها ابن جنى من هذا « المستوى » ومن هذه « المرتبة » ليرتفع بها الكثير من الدرجات . . فهو يرى في عللها من الآثار العقلية ، و « البصمات » الفكرية مما يجعلها أرقى من علل الفقه والفقهاء ، وكأنه - عن هذا الطريق ، ومن هذا الباب - يرتقى بها من المرتبة التي وضعها فيها الفقهاء . . وهو كمعتزلي يرى في علم الكلام ، والذي يقوم على استخدام المنطق والقياس العقلي ، علماً ذا علل أرقى بكثير من علل الفقه والفقهاء . وهو كمعتزلي نحوي كذلك يأتي ليلحق علل النحو بعلم الكلام ، وليقدم منزلتها على المنزلة التي يقف فيها الفقه والفقهاء . . فيقول : « إن علل جل النحويين ، وأعني بذلك حذاقهم المثقنين ، لا أضافهم المستضعفين ، أقرب إلى علل المتكلمين منها إلى علل المتفقيين ، وذلك أنهم إنما يحيلون على أحسن ^(١) ، ويحتجون فيه بثقل الحال أو خفتها على النفس ،

(١) المراء بأحسن - كتاب : العقل

وليس كذلك حديث علل الفقه ، وذلك أنها إنما هي أعلام وأمارات لوقوع الأحكام ، ووجوه الحكمة فيها خفية عنا ، غير بادية الصفحة لنا ، ألا ترى أن ترتيب مناسك الحج ، وفرائض الظهور ، والصلاة ، والطلاق ، وغير ذلك ، إنما يرجع في وجوبه إلى ورود الأمر بعمله ؟؟ . . ولا نعرف علة جعل الصلوات في اليوم واليلة خمساً دون غيرها من العدد ، ولا يعلم أيضاً حال الحكمة والمصلحة في عدد الركعات ، ولا في اختلاف ما فيها من التسبيح والتلاوات إلى غير ذلك مما يطول ذكره ، ولا تحظى النفس بمعرفة السبب الذي كان ذلك له ومن أجله ، وليس كذلك علل النحويين » (١) .

ثم يعود ابن جنى ، شأنه شأن العالم الدقيق التعبير ، فيحدد بدقة مكان علل النحو من علل علم الكلام ، فهو وإن كان يقرر سموها على علل الفقه ، إلا أنه لا يزعم لها نفس المستوى البرهاني الذي تتمتع به علل أهل الكلام ، بل يقول : « لسنا ندعى أن علل أهل العربية في سمت العلل الكلامية البتة ، بل تدعى أنها أقرب إليها من العلل الفقهية » (٢) وهو يعلل ذلك بأنها لم « تبلغ قدر علل المتكلمين ، ولا عليها براهين المهندسين » (٣) ثم يضرب لنا مثلاً نستبين منه ذلك الفارق بينها وبين علل أهل الكلام ، فيتحدث عن علل النحو قائلاً : إنه « لو تكلف متكلف نقضها لكان ذلك ممكناً ، وإن كان على غير قياس ومستثقلاً ، ألا تراك لو تكلفت تصحيح فاء (ميزان) و (ميعاد) لقددرت على ذلك

(١) المصدر السابق ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٢ .

(٣) المصدر السابق ص ٩٠ .

فقلت : يوزان ويوعاد . . . وليست كذلك علل المتكلمين ، لأنها لا قدرة على غيرها ، ألا ترى أن اجتماع السواد والبياض في محل واحد يمنع لا مستكره ، وكون الجسم متحركاً ساكناً في حال واحدة فاسد ، لا طريق إلى ظهوره ، ولا إلى تصوره ، وكذلك ما كان من هذا القبيل ، فقد ثبت بذلك تأخر علل النحويين عن علل المتكلمين ، وإن تقدمت علل المتفقيين » ^(١) .

وهكذا نجد أن ابن جنى قد حاول من خلال تقديمه درجة علل النحو ومستواها على علل الفقه أن يعلو بقدر هذا العلم على قدر الفقه ، ويقدر علماء العربية على منزلة الفقهاء ، ومن ثم نراه قد أحل علوم العربية ، في ميدان ترتيب العلوم ، مكاناً بارزاً ورفيعاً .

(١) المصدر السابق ص ١٤٨ - ١٤٩ .

النظرة الكلية

وكأثر من آثار المنهج العقلي والطابع الفلسفي عند ابن جني ،
نراء يتحدث عما بين الألفاظ النحوية والأحوال التي تظراً عليها ،
والظواهر الإعرابية التي تتأبها ، من أسباب ومسببات ،
وعلاقات ، بحيث يقدم لنا العزل النحوية وهي أقرب ما تكون إلى
القوانين العلمية ، والتعليلات العقلية التي تتناول القضايا في
عمومها وشمولها وكنياتها ، دون أن ينظر إلى المسائل نظرة وحيدة
الجانب ، أو يغرق في كل جزئية على حدة دونما ربط للجزئيات
بعضها ببعض بهدف التعميم والشمول ...

ولعلنا نذكر تلك الخاصة ، التي نسبها الوزير «صمصام الدولة»
إلى جماعة إخوان الصفاء ممثلة في أحد أعلامها « زيد بن رفاعه »
عندما نسب إليه أنه « يذكر الحروف ويذكر اللفظ ، ويؤمن أن الباء
لم تنقط من تحت واحدة إلا لسبب ، والتاء لم تنقط عن فوق
اثنين إلا لعلة ، والألف لم تهمل إلا لغرض »^(١) كما نذكر أننا
قد سبق وأشرنا إلى أن هذا النحو في الدراسة النحوية قد سلكه
ابن جني ، ونحن نزيد على ذلك أننا نرى أن ابن جني ، في هذا
الباب ، إنما كان يبصر في الألفاظ وعلاقاتها ، والحروف وشبهها ،
والحركات وتناسبها ، «علاقات جدلية» ، ونوعاً من التبادل
والتوافق ، لم يتخذ قواعده المحددة في منهج البحث والتفكير إلا

(١) دائرة معارف الشعب م ٥ ص ٤ .

في (المنطق الجدلي) أو العنصر الحديث . فهو ، مثلاً ، يتحدث عن علاقة الحروف بعضها ببعض ، وأحركات بعضها ببعض ، فيقول : « فكما يحسن تألف الحروف المتفاوتة ، كذلك يحسن تتابع الأحوال المتغايرة ، على اعتدال وقرب ، لا على إغفال في البعد ، وكذلك كان مثال فعل أعدل الأبنية ، حتى كثر وشاع وانتشر ، وذلك أن فتحة الفاء ، وسكون العين ، وإسكان اللام ، أحوال ، مع اختلافها ، متقاربة » (١) .

وهو يتحدث عن أن شبه لفظ بلفظ ليس نوعاً من التبعية ، ولا شبهاً يربط به لفظ إلى الآخر كما يربط التابع بالمتبوع ، وإنما هو نوع من التفاعل المبني على العلاقات المشتركة ، ثم يقدم نموذجاً طيباً لذلك عندما يقول : « . . . عادة للعرب مأثوفة ، وستة مسلوكة ، إذا أعطوا شيئاً من شيء حكماء ما ، قابلاً ذلك ، بأن يعطوا المأخوذ منه حكماً من أحكام صاحبه ، عمارة لبيئتهما ، وتتميماً للشبه الجامع لهما ، وعليه باب ما لا ينصرف : ألا تراهم لما شبهوا الاسم بالفعل فلم يصرفوه كذلك شبهوا الفعل بالاسم فأعربوه ؟ » (٢) .

بل هو يذهب إلى أن العرب ، إمعاناً منها في ذلك الربط بين الأشياء ، وإغفالاً منها في هذه النظرة الشمولية الكلية ، لم يكتفوا بأن يلحقوا القروخ بالأصول ، وإنما « قد دعاهم إشارتهم لتشبيه الأشياء بعضها ببعض أن حملوا الأصل على الفرع ، ألا تراهم

(١) الخصائص ص ٩٥

(٢) المصدر السابق ص ٩٤

يعلون المصدر لإعلال فعله ويصححونه لصحته ، وذلك نحو قولك : قمت قياماً ، وقاومت قواماً » (١) .

ثم يمضي ابن جنى في كثير من صفحات كتابه يسوق لنا الأمثلة تلو الأمثلة التي تؤكد لنا بروز النظرة الكلية عنده في دراسته للمظاهر النحوية ، مما يؤكد لنا سبق هذا العالم الجليل إلى ميادين من وسائل البحث ، وإلى عناصر من المنهج العلمى فى البحث يحسب كثير من دارسى الفلسفة والمنطق حتى فى بلادنا أنها لم تكتشف إلا فى أوروبا عصر النهضة ، ومنذ الفيلسوف الألمانى « هيجل » (١٧٧٠ - ١٨٣١ م) على وجه التحديد .

(١) المصدر السابق ص ١١٨

الاهتمام بالجزئيات

ولقد كان ابن جنى ، مثله مثل الباحثين العلميين ، بالمعنى الحديث لهذه الكلمة ، لا يهتم بالاهتمام بالمسائل والقضايا الجزئية ركوناً منه إلى التصور الكلى والشامل للمسائل ، ولا يكتفى بالتعميمات التى تقدم فى شكل قوانين وقواعد وتعريفات استغناء بها عن تتبع الجزئيات المندرجة تحت هذه القوانين والتعميمات والتعاريف . . بل لعله إنما كان يصل إلى هذه التعميمات والمسائل الكلية عبر استقراء الجزئيات واختيار أحوالها ، والأطمئنان إلى صلاحية اندراجها تحت هذه العناوين الكلية والأحكام العامة والقواعد والقوانين . .

وكأثر من آثار طريقتيه هذه كان اهتمامه بأن يكون التعريف ، أو القاعدة ، جامعاً مانعاً بالمعنى الأكثر دقة مما صنعه نحاة كثيرون آخرون . . فنحن قد تعلمنا من النحاة الذين لم يسلكوا فى البحث مسلك ابن جنى أن « الواو » و « الياء » إذا اجتمعتا وسيقت إحداهما بالسكون قلبت الواو ياء ، وأدغمت إحداهما فى الأخرى ، نحو سيد . . . تعلمنا ذلك ، وفقط . . وتذكره معظم كتب النحو ، وفقط . . ولكن ابن جنى لا يجد أطراد هذه القاعدة أمراً مضموناً ، وهو يتتبع جزئيات هذا الباب فيجد تخلف هذه القاعدة عن أن تشمل العديد من الجزئيات فى كثير من الأحيان ، فيضيف جديداً إلى هذه القاعدة فى هذا الباب . . أما كيف كان ذلك . . فلنقرأ معه هذه السطور : « فإن قلت : فما شرطك واحتياطك فى باب قلب الواو ياء إذا اجتمعت مع الياء فى نحو سيد وهين

وجيد ، وشويت شيئاً ولويت لياً . وقد تراهم قالوا : حيوة .
 وضيون ، وقالوا : عوى الكلب عوية ، وقالوا فى تحقير أسود وجدول
 أسود وجدبول ، وأجازوا قياس ذلك فيما كان مثله ، مما واوه غير
 متحركة أو زائدة قبل الطرف ؟؟ . فالذى نقول فى هذا ونحوه .
 إن الياء والواو متى اجتمعتا وسبقت الأولى بالسكون منهما ولم
 تكن الكلمة علماً ، ولا مراداً بصحة واوها التنبيه على أصول
 أمثالها ، ولا كان تحقيراً محمولاً على تكسير ، فإن الواو منه تقلب
 ياء ، فإذا فعلت هذا واحتلت للعللة ، به أسقطت تلك الإلزامات
 عنك . ألا ترى أن حيوة علم ، والأعلام تأتى مخالفة للأجناس
 فى كثير من الأحكام ، وأن ضيون إنما صح لأنه خرج على الصحة
 تنبيهاً على أن أصل لويه وأن أصل حية طوية ، وليعلم أن هذا
 الضرب من التركيب ، وإن قل فى الاستعمال ، فإنه مراد على
 كل حال . وكذلك أجازوا تصحيح نحو أسود وجدبول إرادة
 للتنبيه على أن التحقير والتكسير فى هذا النحو من المثل من قبيل
 واحد ^(١) .

وعلى نفس الدرب يسير ابن جنى فيقدم للفاعل تعريفاً أكثر دقة
 من التعريف المألوف لئذى معظم النحاة ، فيقول : « إن الفاعل عند
 أهل العربية ليس كل من كان فاعلاً فى المعنى . وإنما هو كل
 اسم ذكرته بعد الفعل ، وأسندت ونسبت ذلك الفعل إلى ذلك
 الاسم ، وإن الفعل الواجب وغير الواجب فى ذلك سواء » ^(٢) .

(١) المصدر السابق ص ١٦٠ - ١٦١ .

(٢) المصدر السابق ص ١٩٢ .

وغير هذين المثالين كثير ، يؤكد ابن جني عن طريقها وجوب استقراء الجزئيات ، وتتبع التفاصيل ، وكيف أن ذلك هو الطريق الأكثر أمناً إلى تقديم القوانين والتعريفات والقواعد الصالحة لاستيعاب ما في بابها من مفردات وجزئيات ، وهذا النحو من مساحي البحث هو أشبه بذلك الذي يصنعه المنطق الجنبلي الحديث (العلمى) حينما يهتم باخبار صندوق المقدمات فى القضايا ، قبل أن يجرى عملية استخراج النتائج منها ، على عكس ما كان يصنع المنطق الشكلى (الصورى) القديم .

اللفظ والمعنى

أو: الشكل والمضمون

فى المعارك التى تدور من حولنا اليوم فى كثير من الميادين الثقافية ، وبالذات فى ميدان الدراسات الأدبية والنقدية ، نشهد حديثاً كثيراً عن قضايا اللفظ والمعنى ، والشكل والمضمون . .

ويكاد يجمع الكل هذه الأيام على أن عصور الانحطاط والتخلف الحضارى التى شهدتها لغتنا وأدبنا وثقافتنا وبالذات فى ظل المماليك والأتراك العثمانيين ، قد كانت عصور الاهتمام باللفظ على حساب العناية بالمضمون ، وهى العصور التى تحول فيها الشعر إلى سجع ، وسجع فقط ، والشعر إلى مجرد محسنات بدعية ، ولاشئ غير هذه المحسنات . . بل لقد شهدنا بعض الشيوخ الذين كانوا يدرسون البلاغة أو يحفظون كتبها ، بحواشيها ، وما حوت من كل أنواع المحسنات ، وهم مع ذلك لا يجيدون أى لون من ألوان الخلق والإبداع يمكن أن يحمل أية مسحة من البلاغة التى يدرسون ويترسون .

ولقد كان المرجع فى هذا « الانحطاط الفنى ! » ، هو أن الذين أغرقوا أنفسهم حتى الأذان فى إطار اللفظ ، قد أغفلوا تماماً قضية المعنى ، وأعماهم الشكل عن أن يبصروا قضايا المضمون ومشاكله .

وابن جنى لم يكن مبصراً فقط لقضايا المعنى والمضمون ، إلى جانب اللفظ والشكل ، بل لقد وقف من العلاقة بينهما ، ومن

قضية ترتيبهما الموقف العبقري الذي يقفه اليوم قمم النقد ودارسو الأدب في أرقى الجامعات . . فهو يرى أن العوامل الأولى والأساسية ، والحرك ، والمثير ، إنما هو المضمون ، وأن اللفظ إنما هو أداة ووعاء ، وأن العناية به إنما تكون جزءاً من العناية المبذولة ، واجهد المقدم ، لإبراز المضمون !! . .

بل إننا نراه يعمم هذا الموقف على أشياء عدة يتناولها بالبحث في كتابه ، يستخدم في تناولها هذا المعيار . . فهو أكثر ميلاً إلى العقل منه إلى النص المتعارض مع العقل ، وهنا أيضاً نجد مضموناً وشكلاً ، ومعنى ولفظاً ، فنجده يقول : « باب في مقاييس العربية ، وهي ضربان : أحدهما معنوي والآخر لفظي ، وهذان الضربان وإن عمّا وفشوا في هذه اللغة ، فإن أقواهما وأوسعهما هو القياس المعنوي ، ألا ترى أن الأسباب المانعة من الصرف تسعة ، واحد منها لفظي وهو شبه الفعل لفظاً نحو أحمد والثمانية الباقية كلها معنوية كالتعريف ، والوصف ، والعدل ، والتأنيث ، وغير ذلك ٩٩ . . » (١) .

ثم يتحدث عن الحُسم الذي يفيد الدليل المعنوي ، وكيف أن وجوده ينفي الحاجة إلى القياس اللفظي وإلى إيجاد النظر فيقول : « إذا دل الدليل فإنه لا يجب إيجاد النظر . . . فأما إذا لم يقم دليل فإنك محتاج إلى إيجاد النظر » (٢) .

ثم نراه يمضي في الحديث عن شرف وارتفاع قدره على اللفظ ، وكأنه يحاج الذين لم يروا في البلاغة إلا الحسنات ، فيقول : إن

(١) المصدر السابق ص ١١٤ . (٢) المصدر السابق ص ٢٠٣ ، ٢٠٤

العرب ، فيصا أخذناه عنها ، وعرفناه من تصرف مذهبها ، عنايتها
بعنايتها أقوى من عنايتها بالفاظها . . . ألا ترى أن استمرار رفع
الفاعل ونصب المفعول إنما هو للفرق بين الفاعل والمفعول ، وهذا
الفرق أمر معنوي ، أصلح اللفظ له وقيد مقادة الأوفق من أجله؟^(١) .
ويؤكد أن العناية باللفظ إنما هي أثر من آثار العناية بالمعنى ، فإذا
رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها وحسنوها ، وختموا حواشيها
وهذبوها ، وصقلوا غروبيها^(٢) وأرهفوها ، فلا تترين أن العناية إذ
ذلك ، إنما هي بالألفاظ ، بل هي عندنا خدمة منهم للمعاني وتنويه
وتشريف ، ونظير ذلك إصلاح الوعاء وتحسينه ، وتركيته
وتقديسه ، وإنما البقي بذلك منه الاحتياط للموعى عليه^(٣) .

والذي يبدو لي أن هذه القضية إنما كانت تشغل بال ابن جنى ،
وتحتل من تفكيره حيزاً كبيراً ، ويبدو أنها كانت إحدى القضايا
المثارة في عصره ، وخاصة بين المعتزلة أنصار العقل ، فالمعنى
والمضمون ، وبين المحدثين ، أهل النصوص ، فاللفظ والشكل ،
وذلك لأن ابن جنى يسوق العديد من الأدلة تدعيمًا لوجهة نظره
في هذا المضمون ، مثل أن يقول : « ويدلك على تمكن المعنى في
أنفسهم (أى العرب) ، وتقدمة اللفظ عندهم ، تقديمهم لحرف
المعنى في أول الكلمة ، وذلك لقوة العناية به . فقدموا دليله
ليكون ذلك أمانة لنمكيه عندهم ، وعلى ذلك تقدمت حروف
المضارعة في أول الفعل إذ كن دلائل على الفاعلين ، من هم ؟ وما
هم ؟ وكم عدتهم ؟ نحو : أفعل ، ونفعل ، وتفعّل ، ويفعل^(٤) » .

(١) المصدر السابق ص ١٥٥ .

(٢) الغروب - بضم العين - : مقربها غرب : ومعناها هنا أول الشيء وحده .

(٣) الاختصاص ص ٢٢٥ . (٤) المصدر السابق ص ٢٢٢ .

بل نراه يعضى فى هذا السبيل إلى ما هو أبعد من ذلك ،
 فيلمس بعبقورية قذرة علاقة التبعية التى تربط اللفظ بالمعنى .
 وكيف لا يعدد المعنى جمال اللفظ فقط ، بل يعدد بنيته ومقاطعته
 وأصواته فى أحيان كثيرة ، وذلك « إنك تجد المصادر الرباعية
 المضعفة تأتى للتكرير نحو الرعزة والقلقة والصاعدة والقعقة
 والخرجرة والقرقرة ، ووجدت أيضاً (الفعلى) فى المصادر
 والصفات إنما تأتى للسرعة نحو البشكى والجمزى والتوقى .
 فجعلوا المثال المكرر للمعنى المكرر والمثال الذى توالت
 حركاته للأفعال التى توالت الحركات فيها »^(١) .

كما نلمح تلك العلاقة فى « قولهم : صعد وسعد ، فجعلوا الصاد
 - لأنها أقوى - لما فيه أثر شاهد يرى ، وهو الصعود فى الجبل
 والخائط ، ونحو ذلك : وجعلوا السين - لضعفها - لما لا يظهر ولا
 يشاهد حساً ، إلا أنه مع ذلك فيه صعود الجدلاً صعود الجسم »^(٢) .

كما نجد أن ابن جنى قد أبصر العلاقة بين تفاوت الأحجام
 وتنوع حروف الكلمة الدالة على هذه الأحجام ، فنجد مثلاً :
 « سد وصد » فالسد دون الصد ، لأن السد للباب سد والمنظرة
 ونحوها ، والصد جانب الجبل والوادى والشعب ، وهذا أقوى من
 السد الذى يكون لثقب الكوز ورأس القارورة ونحو ذلك . فجعلوا
 الصاد - لقوتها - للأقوى ، والسين - لضعفها - للأضعف »^(٣) .

(١) المصدر السابق ص ٥٤٤ ، ٥٤٥ . (٢) المصدر السابق ص ٥٥٣ .

(٣) المصدر السابق ص ٥٥٣ ، ٥٥٤ .

ونحن لو تتبعنا هذا اللون من ألوان دراسة ابن جني لعلاقة
التبعية التي تربط اللفظ بالمعنى والشكل بالمضمون لطلنا
الحديث طويلاً لا يناسب الإطار الذي رسمناه لهذه الصفحات ،
فحسبنا في هذا المقام أن نقول : إن ابن جني كان من أبرع الذين
اكتشفوا الفروق الدقيقة بين الكلمات ، وحدد أن مرجع هذه
الفروق إنما هو الفرق القائم بين معاني هذه الكلمات ، لا أنه أمر
توقيفي ، كما يرى ذلك النحاة الذين ذهبوا مذهب الفقهاء .

البراعة فى الجدل

وكان لابد لهذا المنهج العقلى الذى ازدان به ابن جنى ، والطريق الفلسفى الذى سلكه للدراسات النحوية ، كان لابد لهذا النمط العلمى من أن يزود عالمنا الكبير بقدرة فائقة فى صناعة الحجة ، وبراعة وقدرة فى فن الجدل والنقاش . . . وهو قد ورث ذلك أيضاً عن قادة مدرسة الاعتزال وأساطينها ، وهم من نعلم إجادة وبراعة فى هذا اللون من ألوان الإرشاد والإفناع . .

حتى أننا لنجد ابن جنى وهو يستخدم هذه البراعة المعهودة لدى متكلمي المعتزلة فى الدراسات النحوية يقدم لنا صوراً طريفة بقدر ما هى عميقة وصائبة فى أغلب الأحيان . .

فهو بعد أن تحدث عن شرف المعنى على اللفظ ، وساق لذلك العديد من الحجج ، التى رأينا من بينها تقديم العرب الحروف الدالة على المعنى فى أول الفعل المضارع - (حروف المضارعة) - نجده يتلفت حوله فيجد أن للمعاني حروفاً أخرى لم يكن حفظها من الكلمة التقديم الذى كان من حظ حروف المضارعة ، فتسعه الحجة والبيدته ليعطى لهذه الحالة التعليل المنطقى الذى كان أطوع له من البنان ، فيقول : إن العرب قد « حشوا بحروف المعانى فحصنوها بكونها حشواً ، وأمنوا عليها ما لا يؤتمن على الأطراف المعرضة للحذف والإجحاف ، وذلك كألّف التكسير وباء التصغير ، نحو دراهم ودرهم » (١) !!

(١) المصدر السابق ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ .

وصورة أخرى لبراعته في الجدل وإجادته استخدام الحجج العقلية تبدو لنا في حديثه الذي يقول فيه ، مستخدماً أسلوب الحوار : « فإن قلت : ما بالهم كثر عنهم باب فَعَلَ (١) ، نحو عُنُق وطُنْب ، وَقَلَّ عنهم باب فَعِلَ (٢) نحو إِبِل وإِطِل مع أن الضمة أثقل من الكسرة ؟؟ ... (ثم يجيب :) ... إن الضمة وإن كانت أثقل من الكسرة ، فإنها أقوى منها ، وقد يُحتمل للقوة ما لا يُحتمل للضعف ، ألا ترى إلى احتمال الهمزة مع ثقلها للحركات ، وعجز الألف عن احتمالهن وإن كانت خفيفة ، لضعفها وقوة الهمزة ، وإنما ضعفت الكسرة عن الضمة تقرب الياء من الألف ويعد الواو عنها » (٣) .

وصورة ثالثة من صور الجدل البارع عند ابن جنى تظهر كذلك إدراكه الشامل للعلاقات بين الأشياء والعلوم المختلفة ، فهو يتحدث عن كراهية العرب للإطالة ، وأن ذكاءهم إنما أغناهم بالإشارة عن الاطناب ، ثم يستفرد من هذا الباب فيقول : « ووجه ما ذكرناه من ملالتها - (أي العرب) - الإطالة ، مع مجيئها بها للضرورة الداعية إليها ، أنهم لما أكدوا فقالوا : أجمعون ، أكنعون ، أبصعون ، أبتعون . لم يعيدوا أجمعون البتة فبكرروها فيقولوا : أجمعون أجمعون أجمعون أجمعون ، فعدلوا عن إعادة جميع الحروف إلى البعض ، تحامياً ، مع الإطالة ، التكرير الحروف كلها . فإن قيل : لم اقتصروا على إعادة العين وحدها دون سائر حروف الكلمة ؟؟ : قيل : لأنها أقوى في السجعة من الحرفين اللذين

(١) بضم الأول والثاني . (٢) بكسر الأول والثاني

(٣) الخصائص ص ٧٠

قبلها ، وذلك إنها لام ، فهي قافية ، لأنها آخر حروف الأصل .
فجئ بها لأنها مقطع الأصول ، والعمل في المبالغة والتكرير إنما
هو على المقطع ، لا على المبدأ ولا الخشى » (١) .

فنحن نجد أن علم ابن جنى بالأصوات والمقاطع ، وثقافته
البيانية ، وتذوقه للسجع غير المتكلف ، كل ذلك وغيره قد أهله
لأن يقدم لنا هذه الحجة البارة المقنعة ، بل إننا نجد وقد استخدم
أشياء تعد الآن في علم النفس الحديث من مقومات فن الدعاية
والإعلان عندما يقول : « والعمل في المبالغة والتكرير إنما هو على
المقطع ، لا على المبدأ والخشى » فكأنها الثمالة ، آخر ما في
الكأس ، وآخر ما يبقى طعمه في الفم ، وهي وحدها التي تترك
الذكرى وتشكل انطباعات الإنسان ..

(١) المصدر السابق ص ٨٥ .

اللغة.. أقديمة هي أم مخلوقة؟؟..

وكان لابد لابن جنى أن يطرق هذا الباب ، لأن حديث المعتزلة عن خلق القرآن لم يكن مجرد خلاف خاص بمشكلة محصورة في نطاق علم التوحيد الإسلامى . وإنما كان عنواناً من عناوين مذهب فكرى له نظرة خاصة للإنسان ، وتقدير معين للعقل ، ومستوى خاص من الاحترام للفلسفة والحكمة ، ومرونة معروفة فى الأخذ من مختلف الثقافات .

وإذا كان التوحيد ، بمعناه النقى المبرأ من الشبهات ، هو الذى دعا المعتزلة لنفى القدم عن القرآن ، لأنهم ينفون الصفات الزائدة عن الذات العلية حتى لا يكون هناك إقرار بقدم هذه الصفات فيكون مع القديم قدم آخر ، فيدخل المؤمن إلى الإشراك بالله من هذا الباب ، (إذا كان ذلك هو الذى دعا المعتزلة ، ابتداء ، إلى هذه المعركة الفكرية -) مع اعترافنا بأن هذه الحجة لا تمثل كل أبعاد الموضوع عند المعتزلة ، وإن كنا لا نريد الحديث عنها هنا لأنها لا تدخل فى صميم الموضوع الذى نحن بصدده (^(١) فما كان لابن جنى بد من أن يحاكم اللغة بهذا المنطق ، وأن يبحث عن أصلها : أوحى^٢ هي من عند الله ؟؟ . أم ظاهرة تواضع عليها الناس وصنعها الإنسان ؟؟ .

(١) تفصيل ذلك فى كتابنا (المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية) طبعة القاهرة سنة

١٩٨٨ م وتقديماً لرسائل العدل والتوحيد التى حققناها طبعة القاهرة سنة ١٩٨٧ م

ويدهي أن ابن جنى كان إلى جانب التراث الفكرى الذى أقام
المعتزلة قواعده فى هذا الباب ، فهو يرى « أن أكثر أهل النظر على
أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح ، لا وحى ولا توقيف »^(١)
ثم يزيد هذا الأمر إيضاحاً ويقدم لنا كيف كانت هذه المواضعة ،
وكيف وضعت الأسماء للمسميات فيقول : « وذلك أنهم ذهبوا
إلى أن أصل اللغة لا بد فيه من المواضعة ، قالوا : وذلك كأن
يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعداً ، فيحتاجوا إلى إيانة عن
الأشياء المعلومات ، فيضعوا لكل واحد سمة ولفظاً ، إذا ذكر
عرف به ما سماه ، ليمتاز من غيره ، وليغنى بذكره عن إحصائه
إلى مرآة العين ، فيكون ذلك أقرب وأخف وأسهل من تكلف
إحصائه ، لبلوغ الغرض فى إيانة حاله ، بل قد يحتاج فى كثير
من الأحوال إلى ذكر ما لا يمكن إحصائه ولا أدناؤه ، كالفانى ،
وحال اجتماع الضدين على المحل الواحد ، كيف يكون ذلك لو
جاز ، وغير ذلك مما هو جار فى الاستحالة مجراه »^(٢) .

والذين درسوا قصة « نشأة النقود » وظهورها عبر مراحل
المجتمعات الإنسانية ، يحسون الشبه القريب بين الصورة المعنوية
التي رسمها ابن جنى « لوضع اللغة » وظهورها ، والصورة المادية
التي أثمرت « نشأة النقود » ، ولا غرابة فى ذلك ، فكل من اللغة
والنقود أداة تعامل تنشأ فى البداية كحل لمشاكل الصعوبات
الناشئة عن المرحلة السابقة على نشأتها ، ففى حالة النقود هناك
المقايضة العينية وصعوبة إحصاء المقابل والتنقل به فى الأسواق .

(١) الخصائص ص ٣٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٢ .

ويكفى أن نتصور مثلاً صعوبة أن ندفع حُملة أسهم شركة قناة السويس المؤممة تعويضاتهم في باريس عن طريق تقديرها بالإبل مثلاً ، كما كان يصنع العرب في الديات ! ، وأن ننقل هذه الإبل إلى باريس ! صعوبة ذلك ، والفرق بينه وبين فتح اعتماد في أحد بنوك باريس ليأخذ كل مساهم نصيبه ورقة أو وريقات يحملها بين أصبعيه ...

كذلك الحال بين المسميات والأسماء ، ففي البداية كانت الإشارات هي اللغة ، والإشارة تستلزم وجود المشار إليه ، أو إحضاره أو الانتقال إليه ، وقد يكون غير موجود ، لا مجرد الغياب ، بل لأنه قد فنى كما يقول ابن جنى ، أو لا يمكن إيجاده ، لأنه مزيج من الضدين اللذين لا يجتمعان في مكان واحد ... وهنا كان لابد للإنسان الطامح إلى تنمية ثروته الفكرية من أن يخترع الأدوات التي تسهل له العمل في هذا الميدان ...

ثم تطورت اللغة ، كما تطورت النقود ، مع فروق بينهما ، أهمها أن اللغة قد أصبحت وعاء حضارياً ، ومخزناً للمقدسات ، وأن ألفاظها قد اكتسبت قيمة اجتماعية وروحية أعطتها ، أو أعطت بعضها ، ألواناً خاصة ارتقت بها عن مجرد الأداة ، ومن الذى ينكر أن ألفاظاً مثل « نبي » ، و « رسول » ، و « شهيد » إنما تحمل من الجلال والمهابة والقدسية أكثر من المعنى الحرفي الذى وضعت أصلاً لتدل عليه ؟؟ ...

هذه هي قصة نشأة اللغة كما يحددها عقل ابن جنى وعلمه ... وهو هنا يضارع بل يناطح أحدث علماء اللغة في أكثر الجامعات اهتماماً بهذا الفرع من فروع الدراسات ... ولكنه لا يقف عند هذا

الحد من حدود التعميم والتصوير لعملية « وضع اللغة » بل يمتضى بنا ليحدد ويعلل لم جاء هذا اللفظ بالتحديد لهذه الذات دون غيرها ؟؟ ولم كان هذا الاسم علمًا وسمًا لهذا المسمى ؟؟ .

فيتحدث عن صلة اللغة بالطبيعة والحيوان ، وكيف أنها مصدر من المصادر التي حددت بنية بعض الألفاظ وجرّسها ، فيقول : « يذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدوى الريح ، وطنين الرعد ، وخريف الماء ، وشحيج الخمار ، ونعيق الغراب ، وصهيل الفرس ، ونزيب الظبي ونحو ذلك ، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد ، وهذا عندي وجه صالح ومذهب مُتَقَبَّل » ^(١) . وهو بهذا يشير إلى خاصية المحاكاة في الإنسان ، وصلتها بقضية « وضع » اللغات ، كل اللغات .

وصلة أخرى . وسبب آخر ، يضاف إلى المحاكاة للطبيعة والحيوان . يصل إليه ابن جنى نتيجة لدراساته اللغوية . وهو الصلة القائمة بين بنية اللفظ وجرسه وبين معناه ، فهو يحدد : « أن كثيرًا من هذه اللغة وجدته مضاهيًا بأجراس حروفه أصوات الأفعال التي عبر بها عنه . ألا تراهم قالوا : قضم في اليابس وخضم في الرطب ، وذلك لقوة القاف وضعف الخاء ، فجعلوا الصوت الأقوى للفعال الأقوى ، والصوت الأضعف للفعال الأضعف ، وكذلك قالوا : صر الجندب ، فكررُوا الراء لما هناك من استطالة صوته ، وقالوا : صرصر البازي ، فقطعوه ، لما هناك من تقطيع صوته ، وسموا الغراب غاق ، حكاية لصوته ، والبط بطًا ،

(١) المصدر السابق ص ٤٥

حكاية لأصواتها وقالوا : « قَطَّ » الشيء ، إذا قطعه عرضاً ، و « قَدَّه » إذا قطعه طولاً ، وذلك لأن منقطع الطاء أقصر مدة من منقطع الدال ، وكذلك قالوا : « مد الحبل » و « مت إليه بقرابة » فجعلوا الدال - لأنها مجهورة - لما فيه علاج ، وجعلوا التاء - لأنها مهموسة - لما لا علاج فيه ^(١) .

وكثير غير هذه الأمثلة ، وكثير غير هاتين الصلتين وهذين السببين ، يسوق ابن جنى فى كتابه تدعيماً لوجهة نظره ونظر المعتزلة ، « أهل النظر » فى هذا الباب .

وهو يجادل الذين يرون أن اللغة إنما هى توقيف من عند الله ، كما جادل المعتزلة الذين قالوا : إن لفظ القرآن قديم لأنه كلام القديم سبحانه وتعالى ، فيقدم فى هذا الصدد حجة المعتزلة عندما يقول : « إن المواضعة لا بد معها من إيماء وإشارة بالجارحة نحو الموصى إليه والمشار نحوه ، والقديم - سبحانه - لا جارحة له فيصح الإيماء والإشارة منه ، فبطل عندهم ^(٢) إن المواضعة على اللغة منه ^(٣) .

وهو الذى تتلمذ على أبى على الفارسى (٢٨٨ - ٣٧٧ هـ - ٨٤٣ - ٩٨٧ م) وصحبه أربعين عامًا يرفض إقرار ذلك الخطأ الذى كان يخطر أحياناً لأبى على الفارسى بأن اللغة وحى من عند الله فيقول : « إن أباً على الفارسى - رحمه الله - قال لى يوماً : هى من عند الله ، واحتج بقوله : سبحانه ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ ^(٤) . وهذا

(١) المصدر السابق ص ٦٦ ، ٦٧ - (٢) أى عند « أهل النظر » ؛

(٣) الخصائص ص ٤٣ . (٤) سورة البقرة : ٣١ .

لا يتناول موضع الخلاف ، وذلك أنه قد يجوز أن يكون تأويله :
أقدر آدم على أن وأضع عليها ، وهذا المعنى من عند الله - سبحانه -
لا محالة^(١) .



ولكن ... ، وعلى الرغم من كل هذا الذى قدمناه حول موقف
ابن جنى من قضية أصل اللغة ، إلا أننا لا نستطيع أن ننسب
لابن جنى القطع التام بهذا رأى ، واليقين الحقيقى بوجهة النظر
هذه ، والاطمئنان غير المهزوز بهذا الذى حدثتنا به نصوصه التى
أشرنا إليها والتى أوردنا بعضاً منها فيما تقدم من سطور .

وذلك لأن ابن جنى كان يقف هذا الموقف الذى قدمناه بعقله
كعالم وكمفكر معتزلى ، ولكنه كان يقف كفنان ناقد - (وهذا
جانب أصيل من جوانب شخصيته) - أمام روعة اللغة العربية ،
فبنيهر بجمالها ، حتى ليرتفع مستوى روعتها وجمالها عن مستوى
العلم والثقافة التى عليها العرب الذين عرفهم ودرس تراثهم وتلمذ
على أيديهم هو ومن عاصره من المفكرين ... وكأنما قد سأل نفسه :
كيف يضع العاجز القوة ؟؟ وكيف يخلق الإنسان العربى ،
مهما كانت ثقافته وعلمه ، هذا الجمال اللغوى وهذا البناء الشامخ
الذى لا تحيط بجماله الظنون والتخيلات ؟؟ .

وهو إزاء هذا الازدواج فى الموقف ، كان معذباً مهموماً . فعقله
قد حكم ، وقد قدمنا حكمه ، وعاطفته ومشاعره وجانب الفنان
من شخصيته كانت تراوده عن عقله بأن هذه اللغة لا يجدر أن

(١) المصدر السابق ص ٣٩

تكون مخلوقة ومنسوبة لغير الله ، فهو وحده الذى تظمئن النفس إلى أنه صاحب كل هذا الجمال . . وهو يعبر بأمانة العالم عن هذا الموقف فيقول : « واعلم بعد ، أننى على تقادم الوقت ، دائم التفسير والبحث عن هذا الموضوع ، فأجد الدواعى والخوارج قوية التجاذب لى ، مختلفة جهات التغول على فكرى ، وذلك أننى تأملت حال هذه اللغة الشريفة ، الكريمة اللطيفة ، وجدت فيها من الحكمة والدقة ، والإرهاق والرقّة ما يملك على جانب الفكر ، حتى يكاد يطمح به أمام علوة السحر ، فمن ذلك ما نبه عليه أصحابنا - رحمهم الله - ومنه ما حذوته على أمثالتهم ، فعرفت بتابعه وانقياده ، وبعد مراسيه وأمانه ، صحة ما وفقوا لتقديمه منه ، ولطف ما أسعدوا به ، وفرق لهم عنه ، وانضاف إلى ذلك وارد الأخبار المأثورة بأنها من عند الله - جل وعز - أقوى فى نفس اعتقاد كونها توقيفاً من الله - سبحانه - وأنها وحى . ثم أقول ضد هذا كما وقع لأصحابنا ولنا ، وتنبهوا وتنبهنا على تأمل هذه الحكمة الرائعة الباهرة » (١) .

بل إننا نجد ابن جنى يضى فى هذا الموقف الذى تنوع فيه المشاعر والآيات المتباينة التأثير ، ثم يحاول أن يلمس توفيقاً عقلياً علمياً لوضع اللغة يتناسب مع روعتها وجمالها ، فيتخيل لها قوماً قد سبقوا إلى وضعها ، وأنه كانت لهم من الثقافة والإمكانات الحضارية أكثر مما لنا نحن فلا يستبعد « أن يكون الله - تعالى - قد خلق من قبلنا ، وإن بعد مداه عنا ، من كان اللطف منا أذهاناً ، وأسرع خواطر ، واجراً جناناً » (٢) .

(١) المصدر السابق ص ٤٥ - (٢) المصدر السابق ص ٤٥ ، ٤٦ .

ولكنه مع ذلك لا يشعر أنه قد وصل في هذا الموقف إلى أرض اليقين فيستحدث عن نفسه قائلاً : « إنني » أقف بين اخلتين حسيراً ، وأكافئهما فأكتفي مكثوراً ، وإن خطر لي خاطر فيما بعد ، يعلق انكف بإحدى الجهتين ويكفها عن صاحبتها ، قلنا به وبالله التوفيق » (١) .

وبعد . . . فهل في حيرة ابن جنى هذه ما يمكن أن يؤخذ عليه كعالم يستخدم العقل معياراً للفكر اللغوي في نظر العلماء اللغويين ، وخاصة أولئك الذين لا يقيمون من المعايير في الدراسة غير هذا المعيار ؟؟ . .

الواقع أننا نظلم ابن جنى إذا جعلنا من تردده هذا نقطة ضعف في موقفه ومنهجه وإيمانه بالعقل كمعيار في التفكير . . وذلك لأن في اللغة العربية ، فعلاً ، من الجمال والبروعة ما يصل أحياناً إلى مستوى الأسرار . ولأننا لو علمنا مثلاً ذلك الحديث الذي ساقه عنها مستشرق فرنسي مثل « أرنست رينان » (١٨٢٣ - ١٨٩٢ م) عندما يقول : « من أعرب ما وقع في تاريخ البشر ، وصعب حل سره ، انتشار اللغة العربية ، فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بادى بدء ، فبدت فجأة في غاية الكمال ، سلسة آية سلاسة ، غنية ، أى غنى ، كاملة بحيث لم يدخل عليها منذ ذلك العهد أى يومنا هذا أدنى تعديل مهم ، فليس لها طفولة ولا شيخوخة ، ظهرت أول أمرها مستحكمة ، ولا أدرى هل وقع مثل ذلك للغة من لغات الأرض ، قبل أن ندخل في أضوار وأدوار مختلفة » (٢) .

(١) المصدر السابق من ٤٦

إذا كان « ريتان » ابن الحضارة العلمية - العقلية - وابن القرن التاسع عشر ، يقول عن العربية هذا ، ويقف أمامها مشدوهاً ، ويتحدث عنها هذا الحديث ، أفيكون حراماً على ابن جنى أن يقف موقفه الذي لم يستقر على حال فيه ؟ . . . إننا نرى أن ابن جنى كان أكثر التزاماً بالعقل من « ريتان » لأن الأخير قد قطع برأى ينكره الدارسون اللغويون المحدثون ، أما ابن جنى فقد قال : « وإن خطر لي خاطر فيما بعد . . . قلنا به ، وبالله التوفيق » . . . وحبه ذلك أمانة والتزاماً بالموقف العقلي السليم .

ما هو العامل؟؟

وصدوراً من هذا المنطلق الفكرى الذى يرى الإنسان حر الإرادة . خالقاً لأفعاله . واضعاً للغة ، مضى ابن جنى إلى تناول مشكلة شغلت ولا تزال تشغل العديد من النحاة ، ألا وهى مشكلة «العامل» . . ما هو ؟ أهو اللفظ ؟ أم المعنى ؟ أم شيئاً آخر غير اللفظ والمعنى ؟؟ .

وابن جنى ، انسجماً مع موقفه الفكرى ، يرى أن العامل هو الإنسان ، أى الإنسان المتكلم : وهو يوجز تناول هذه القضية بقوله : « . . . وإنما قال النحويون : عامل لفظى وعامل معنوى ، ليبرك أن بعض العمل يأتى مسبباً عن لفظ يصحبه كمررت بزيد . وليت عمراً قائم ، وبعضه عارياً من مصاحبة لفظ يتعلق به ، كرفع المبتدأ بالابتداء : ورفع الفعل لوقوعه موقع الاسم . هذا ظاهر الأمر ، وعليه صفحة القول . فإما فى الحقيقة ومحصول الحديث ، فالعمل من الرفع والنصب والجر والجزم إنما هو للمتكلم نفسه ، لا لشيء غيره ، وإنا قالوا : لفظى ومعنوى كما ظهرت آثار فعل المتكلم بمضامة للفظ أو باشتمال المعنى على اللفظ » ^(١) .

وهو موقف واضح ، والتعبير عنه فى هذه العبارة كافٍ ليوضح مذهب ابن جنى فى هذا الباب .

(١) المصدر السابق ص ١١٥ .

الثقة فى الحضارة العربية

وقد يبدو للإنسان عندما يستعرض كتاب ابن جنى ويسبر أغوار الحجج العقلية التى ساقها تعليلاً للكلمات والألفاظ والقواعد ، أن ابن جنى قد تكلف فى تحميله العرب مسئولية هذا النمط من الدراسة العقلية للغة العربية . . وأنه عندما تحدث عن « وضع » اللغة إنما نسب إلى القوم ما هو فوق طاقتهم وقدرهم . . قد يبدو ذلك للإنسان ، وخاصة ونحن نجد الكثير من الكتب والدراسات ، تقدم لنا العرب الأقدمين « أهل سليقة » ، الذى استقر وانقطع فى أذهاننا عن هذه « السليقة » هو شئ « أقرب إلى » الميكانيكية « والآلة » منه إلى أعمال الفكر المؤدى إلى الخلق والإبداع . .

فالبعض يتصور أن كل العرب ، دون استثناء ، كانوا يفوتون الشعر بالسليقة ، بمعنى أنهم لم يكونوا يبذلون الجهد ليخرجوا لنا هذا الشعر وينشدوه . .

وأن سليقتهم اللغوية لم تكن لتجعلهم فى حاجة إلى أعمال الفكر فى اللغة من حيث الصحة والخطأ وغيرهما من الأمور التى تكتنف مثل هذه الدراسات . .

والبعض يطمئن إلى هذه الصورة عن العرب لأنه قد تعلم أنهم كانوا فى جاهليتهم قبائل بلا حضارة ، وأن هيتهم الرثة لم تكن إلا تعبيراً عن فقرهم الحضارى ، وخلق حياتهم من أغلب المقومات الحضارية للإنسان . .

والأمر الذي لاشك فيه أن هذه الصورة عن العرب ، حتى قبل الإسلام ، إنما هي صورة مزيفة ، وخاطئة من الأساس ، وأنه قد تحالف على تزيفها أناس كثيرون على اختلاف فيما وراء هذا التزييف من أهداف . . فالبعض أراد أن يصور الإسلام وكأنه قد خلق حضارة من العدم ، ليعطى لديننا وعقيدتنا إعجازاً فوق ما لها من إعجاز . . وآخرون أرادوا أن يقدموا العرب في صورة مزيفة حتى لا يعترفوا بفضلهم في الحضارة التي حققها الإسلام ، وحتى ينسبوها إلى شعوب أخرى غير عربية ارتضت عقيدة هذا الدين الجديد .

وفريق ثالث توهم ، بسذاجة نادرة ، أن وثنية العرب في الجاهلية إنما هي دليل على تخلفهم وانعدام الحضارة لديهم ، ونسوا بذلك أن الأغلبية الساحقة من حضارات العصور القديمة - في مصر ، واليونان ، والإغريق - إنما كانت حضارات وثنية ، ومع ذلك فهي حضارات . . كما نسوا أن وثنية العرب في الجاهلية إنما كانت من نوع أكثر تقدماً - إن جاز التعبير - من وثنيات أخرى قديمة خلقت حضارات أجمع على إجلالها المؤرخون . وذلك لأن أصنام العرب في جاهليتهم لم تكن معبودات ، بل مجرد وسائل للمعبود الواحد ، وذلك بدليل قول القرآن الكريم يحكى قولهم عندما قالوا : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ ١١ .

ونحن لا نريد أن نفيض في الحديث عن حضارة العرب قبل الإسلام ، ولا عن الفرق بين « العرب » و « الأعراب » ، ولا عن معرفة العرب للتجارة والبحر والسفن والرحلات منذ عصور موغلة

فى التاريخ ، ولا عن أن الشعر الجاهلى ، بما يحمل من روعة مذهشة ، لابد وأن يكون تعبيراً عن حضارة قوم ليسوا هم الذين تصفهم ، فتتجنى عليهم ، بعض كتب التاريخ ... نحن لا نريد أن نفيض فى هذا الباب ، وإنما الذى نريد أن نقوله هو أن ابن جنى كان ينظر إلى العرب نظرة كلها ثقة وكلها إعجاب ، بل وكان يناقش فى أيامه أسلاف الذين نراهم اليوم لا ينظرون للعرب بالقدر الكافى والواجب من التقدير والاحترام . . . فهو يقول : « فإن قلت : ومن أين يعلم أن العرب قد راعت الأمر واستشفتة ، وعנית بأحواله وتبعته ، حتى تحامت هذه المواضع التحامى الذى نسبته إليها ، وزعمته مراداً لها ؟ وما أنكرت أن يكون القوم أجفى طباعاً ، وأيس طيناً من أن يصلوا من النظر إلى هذا القدر اللطيف الدقيق ، الذى لا يصح لذى الرقة والدقة منا أن يتصوره إلا بعد أن توضح له أنحواؤه ، بل أن تشرح له أعضاؤه ؟؟ قيل له : هيهات ، ما أبعدك عن تصور أحوالهم ، وبعد أغراضهم ، ولطف أسرارهم ، حتى كأنك لم ترمهم وقد ضايقوا أنفسهم ، وخفقوا عن ألسنتهم بأن اختلسوا الحركات اختلاساً ، وأخفوها فلم يمكنوها فى أماكن كثيرة ولم يشبعوها ، ألا ترى إلى قراءة أبى عمرو : ﴿ مائلك لا تأمنا على يوسف ﴾ ^(١) مختلساً ، لا محققاً . وكذلك قوله - عز وجل - : ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ﴾ ^(٢) مخفى لا مستوفى . وكذلك قوله - عز وجل - : ﴿ فتوبوا إلى بارئكم ﴾ ^(٣) مختلساً غير ممكن كسرة الهمزة ^(٤) !! .

(١) سورة يوسف : ١١ . (٢) سورة القيامة : ٤٠ .

(٣) سورة البقرة : ٥٤ . (٤) المصدر السابق ص ٧٤ .

ثم يمضى ابن جنى ناسباً إلى العرب إعمال الفكر في اللغة ،
ونافياً عنهم تلك الصورة الساذجة لمعنى « السليقة اللغوية
الفصيحة » التي تصورها البعض عنهم ، فيتحدث ، نقلاً عن
المتنبي ، قائلاً : « حدثني المتنبي شاعراً - وما أعرفه إلا صادقاً -
قال : كنت عند منصرفي من مصر في جماعة من العرب ،
وأحدهم يتحدث ، فذكر في كلامه فلاة واسعة ، فقال : بحير
فيها الطرف ، فقال آخر منهم يلقيه سراً من الجماعة بينه وبينه .
فيقول له : يحار - (ثم يمضى ابن جنى فيقول :) - أفلا ترى إلى
هداية بعضهم لبعض وتنبيهه إياه على الصواب ؟ »^(١١) .

بل إننا نجد وقد اتخذ من شعر العرب ، والصور التي مدحوا بها ، والخلال
التي حمدوها ما يكشف عن ذوقهم وتقدمهم وأهليتهم لأن ينسب إليهم
الباحث أعمال العقل والتفكير ، فهو يقول : « وما يلدك على لطف
القوم ، مع تبذلهم وبذاذة ظواهرهم ، مدحهم بالبساطة والرشاقة ،
وذمهم بضدها من الغلظة والغباوة ، ألا ترى إلى قولها : »^(١٢) .

فتى قَدْ قَدْ السيف لا متأزف ولا رهل ثباته وبأدله
وقول جميل في خبر له :

وقد رايتني من جعفر أن جعفرًا يبت هو ليلى ويشكو هو جميل
فلو كنت عذري الصباية لم تكن بظناً . وأنساك الهوى كثرة الأكل !
وقول عمر :

قليل على ظهر المطية ظله سوى ما نفى عنه الرداء المخبر^(١٣)

(١) المصدر السابق ص ٢٤٨

(٢) انصهر هنا يرجع إلى « ينسب » لعل يزيد بن العثيرة « وليت من قصيدة تروى بها أمها »

(٣) الخصال ص ٨١

فأبن جنى هنا مثال العالم المنطقي مع نفسه ، فإذا كان الشعر هو ، ديوان العرب الجامع ، كما يقول الجميع ، فلا يحق لنا أن نتخذ من تبذل العرب وبذاذة مظهرهم . وخاصة الأعراب منهم . سبيلاً لتجريدهم من مقومات الحضارة ، بينما نفضل تماماً ونغض الطرف كلية عما في ديوانهم الجامع هذا من شواهد لا تدحض على تمكنهم من قيم جمالية رائعة لم تكن تحتاج لهم إلا بسبب انتسابهم إلى حضارة عربية ، أو حضارات ناسبت ما كانوا يعيشون في ظله من مراحل التطور التي شهدتها الإنسان .

ومن هذه الأرضية المليئة بالثقة في العرب لا يجد ابن جنى حرجاً في أن يمدح لغتهم فيقول : « وكلام العرب ، من عرفه وتدرّب بطريقتها فيه . جاز مجرى السحر لطفاً ! » (١) .

بل هو بعد ذلك لا يتحرج في أن يضع العربية في مرتبة أرقى من الفارسية ، وهو عندما يصنع ذلك لا يمكن أن يكون هادفاً إلى إبراز أن العربية أفضل لأنها وحى أو من عند الله ، وإنما لأن العرب كانوا أكثر تجويد اللغتهم ، وقدرة على تقديمها في هذا المستوى الرفيع ، فهو يقول : « إننا نسأل علماء العربية عن أصله أعجمي ، وقد تدرب بلغته قبل استعراجه . عن حال اللغتين ، فلا يجمع بينهما ، بل لا يكاد يقبل السؤال عن ذلك ، ليعده في نفسه . وتقدم لطف العربية في رأيه وحسه » (٢) .

(١) المصدر السابق ص ٢١٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٥٢ .

فأين من ابن جنى هؤلاء الذين جعلوا فضل العربية على غيرها راجعاً إلى أنها لغة أهل الجنة ، أو لغة آدم - عليه السلام - التي قال بها شعراً رووه ونسبوه إليه ١١٩٩ . . . إن ابن جنى يسأل في هذا الأمر : أمر المقارنة بين العربية والفارسية : يسأل « علماء العربية من أصله أعجمي » ويختار من بين هؤلاء من « قد تدرّب بلغته قبل استعرايه » . . . وتلك أمانة العالم الواقف من علمه - بل النموذج الذي يجب أن يحتذيه العلماء .

الإيمان بقدرة النفس على اكتشاف المجهول

وابن جنى الذى يعطى كل هذه الثقة للعقل العربى والتراث والحضارة العربية ، لا يقف هذا الموقف من ماضى هذا العقل والتراث والحضارة فقط ، وإنما تنسحب ثقته هذه وتمجيده ذاك على المستقبل ، مستقبل الإنسان العربى المتسلح فى حقل العلم والدراسات بالمنطق العقلى ، وأدوات البحث التى تثبت صحتها وجدواها فى هذا الميدان . .

ونحن نلمح من خلال أحاديثه وإشاراته المتناثرة أن إيمانه بقدرة العقل على فض المغلق من الحقائق ، واكتشاف المجهول من المعارف ، والوصول إلى المحجوب من العلوم ، قدرة كبيرة ، وليس أمام الأمل فى انتصارات الإنسان فى هذا المجال حدود ولا سبود . .

فهو رغم حيرته وتردده فى موضوع اللغة ، أوحى هى أم موضوعة؟ إلا أنه لا يقد الأمل فى أن يصل عقله يوماً ما إلى خاطر يحسم الأمر فى أى من الاتجاهين اللذين يتنازعانه ويتجادبان عقله ووجدانه ، فيعد القارئ بأنه « إن خطر خاطر فيما بعد ، يعلق الكف بإحدى الجهتين ويكفها عن صاحبها ، قلنا به » (١) .

وعندما يتحدث عن حكمة العرب ، فإنه يقف الموقف المنطقى مع نفسه ، فإذا كان مجد هذه الحكمة إنما يرجع إلى علو شأن

(١) المصدر السابق ص ٤٦ .

العقل العربي ، فلا بد لعقل الباحث من أن يصل إلى أغوار هذه الحكمة ويتكشف ما فيها من روعة وجمال ، وإذا كان يقف اليوم عاجزاً أمام بعض أسرار هذه الحكمة فلا بد وأن يفتح له المستقبل هذه الأبواب ، فحكمة العرب كما يقول : « تشهد بها العقول ، وتتناصر إليها أغراض ذوى التحصيل ، فما ورد على وجه يقبله القياس وتقتاد إليه دواعي النظر والإنصاف ، حمل عليها ، ونسبت الصنعة فيه إليها ، وما تجاوز ذلك فنحفي لم تياس النفس منه » (١) .

فهذه الثقة التي يعطيها ابن جني للنفس ، وإيمانه بقدرتها على اكتشاف ما هو « خفي » الآن ، إنما توحى إلينا ، هي كذلك ، بصدقه مع نفسه ، ومع المنهج الاعتزالي الذي استخدمه بعقريته وحصافة عندما غزا به - على هذا النحو الذي أشرنا إليه - دراسة النحو العربي ، وقدم لنا كتابه القيم (الخصائص) تجسيدا لهذا المنحى الدراسي في هذا الميدان (٢) .

(١) المصدر السابق ص ٥٥٦ ، ٥٥٧ .

(٢) عندما كنت طالبا في « ليسانس » كلية دار العلوم ، كان مطلوبا أن أقدم - في أعمال السنة - بحثا في نحو اللغة العربية ... ولما كنت عزوفا عن البحوث التقليدية ، التي لا إبداع فيها ولا فكر - كأغلب البحوث التي تقدم في مثل هذه المناسبات ، في « النحو » - فلقد حار عقلي : ماذا أكتب ؟ وكيف ؟ ... ثم تذكرت أنني قرأت للدكتور طه حسين ثناء على تفرد كتاب (الخصائص) لابن جني ، ووصفه بأنه أعظم ما كتب في فلسفة العربية ...

ولما كنت أعلم أن ابن جني هو واحد من أعلام التيار العقلاني في تراثنا العربي الإسلامي ، فلقد خطر بذهني أن أبحث عن أثر منهجه العقلاني في دراساته للعربية ، كما ثلثت في كتابه (الخصائص) ... فكانت هذه الدراسة - التي بين يدي القارئ - هي التي تقدمت بها « بحثا » في « أعمال السنة » عندما كنت طالبا في كلية دار العلوم .

الفهرس

٣	مقدمة
٧	الكوفة والبصرة : مدينتان ومدرستان
١٨	من هو ابن جنى؟؟
٢٠	منهج البحث فى (الخصائص)
٢٢	الخلق والإبداع
٢٥	الاستقلال فى الرأى
٢٧	مستوى البراهين النحوية ومكان النحو من تصنيف العلوم
٣٠	النظرة الكلية
٣٣	الاهتمام بالجزئيات
٣٦	اللفظ والمعنى أو الشكل والمضمون
٤١	البراعة فى الجدل
٤٤	اللغة ... أقدمية هى أم مخلوقة؟؟
٥٣	ما هو العامل؟؟
٥٤	الثقة فى الحضارة العربية
٦٠	الإيمان بقدرة النفس على اكتشاف المجهول

إلى القارئ العزيز ..

في هذه السلسلة الجديدة :

إذا كان «التنوير الغربى» هو تنوير علمانى ، يستبدل

العقل بالدين ، ويقيم قطيعة مع التراث ..

فإن «التنوير الإسلامى» هو تنوير إلهى ، لأن الله

والقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم : أنوار ، تصنع

للمسلم تنويرا إسلاميا متميزا .

ولتقديم هذا التنوير الإسلامى للقراء ، **تصدر هذه**

السلسلة ، التى يسهم فيها أعلام التجديد الإسلامى

المعاصر :

● د . محمد عمارة ● المستشار طارق البشرى .

● د . حسن الشافعى ● د . محمد سليم العوا .

● ا . فهمى هويدى ● د . جمال الدين عطية .

● د . سيد دسوقي ● د . كمال الدين إمام .

وغيرهم من المفكرين الإسلاميين ..

إنه مشروع طموح ، لإنارة العقل بأنوار الإسلام .

الناشر